الكذبة الثالثة

رواية

آغوتا كريستوف

ترجمة بسّام حجّار

دار الآداب

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع.ح

twitter @baghdad_library

أغوتا كريستوف

الكذبة الثالثة!

رواية

ترجمة بسام حجّار

دار الآداب - بيروت

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع.ح

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩٥

twitter @baghdad_library

القسم الأول

إنّي نزيلُ السجن في مدينة طفولتي الصغيرة.

ليس سجناً حقيقيّاً، بل زنزانة في مبنى مركز الشرطة المحلّيّة؛ مبنىً ليس سوى منزلٍ مثل باقي منازل المدينة؛ منزلٌ من طبقة واحدة.

لابدَّ أنَّ زنزانتي كانت فيما مضى حُجرةً للغسيل، يُطلُّ بابها ونافذتها على الفِنَاء. أمّا المشابك الحديديّة المثبتة في إطار النّافذة، فلابدَّ أنَّها أضيفت فيما بعد ومن الداخل، بحيثُ يصبح من المستحيل أن تصل إليها يدٌ وتكسر زجاجها. ركنٌ بمثابة مرحاض يفصله عن المساحة المتبقّية ستار. ولصق أحد الجدران ثبّتت في أرضيّة الحجرة طاولة وأربع كراسٍ بواسطةِ براغٍ؛ أمّا عند الجدار المقابل فقد صُفَّت أربعة أسرّة ميدان، بقيت ثلاثة منها مطويّة.

ليس في الزنزانة سواي. ذلك أنَّ المجرمين قلائل في هذه المدينة، وحين يُعثر على أحدهم يُنقل مباشرةً إلى المدينة المجاورة، فهي مركز المقاطعة الإداري وتبعد نحو عشرين كيلومتراً.

أمّا أنا فلست مجرماً. وإذا كنتُ الآن نزيل هذا المكان فلأنَّ أوراقي الثبوتيّة ما عادت قانونيّة، وانتهت مهلة إقامتي هنا، فضلاً عن الديون الّتي تراكمت عليَّ.

عند الصباح يحضر لي حارسي طعامَ الفطور، حليباً وقهوةً

وخبزاً. أحتسي قليلاً من القهوة وأذهبُ للاستحمام. أمّا حارسي فينهي طعام الفطور وينظّف زنزانتي. يبقى البابُ غير موصد، وهكذا يتسنّى لي أن أخرج إلى الفِناء متى شئت. والفِناءُ عبارة عن باحة داخليّة مسوّرة بحيطان عالية عرّشت عليها أغصان اللّبلاب والدوالي البرّيّة. هناك خلف أحد هذه الحيطان، إلى يسار مدخل الزنزانة، باحة مدرسة، فأسمع الأولاد يضحكون ويلعبون ويتصايحون أثناء الفُرَص. أذكر جيّداً أنَّ هذه المدرسة كانت هنا منذ كنتُ طفلاً، وإنْ لم يُتَحْ لي أن أكون تلميذاً فيها؛ ولكنَّ السجن كان في مكانٍ آخر، آنذاك، وأذكر ذلك جيّداً أيضاً لأنّني قصدته ذات يوم.

طوال ساعة عند الصباح، وساعة أخرى عند المساء، أتمشَّى في أرجاء الفِناء إنَّها عادة اكتسبتها منذ صغري، عندما كان عليّ وأنا في الخامسة من عمري، أن أتعلّم المشي من جديد.

وحين أفعل ذلك يشعر حارسي بضيق، لأنّني لا أتكلَّم في تلك الأثناء ولا أصغي إلى أيّ سؤال.

أمشي وأدور بمحاذاة الحيطان وأنا أحدّقُ في الأرض، وقد شبكتُ يديَّ خلفَ ظهري. أرضُ الفِناء مبلّطة، ولكنَّ العشبَ ينبتُ خلال الشقوق بين الحجارة.

الباحة مربّعة تقريباً. خمس عشرة خطوة طولاً وثلاث عشرة عَرْضاً. وإذا افترضتُ أنَّ اتّساع خطوتي يبلغ متراً واحداً، فهذا يعني أنَّ مساحة الباحة تبلغ مئةً وخمسة وثمانين متراً مربّعاً. ولكنَّ خطواتي ليست بمثل هذا الاتّساع بالتأكيد.

في وسط الباحة طاولة مستديرة وحولها كرسيّان، ولصقَ الحائط، في مؤخّرها، مقعد مستطيل من الخشب.

twitter @baghdad_library

وحين أجلس على هذا المقعد أرى الجزء الأكبر من سماء طفولتي.

منذ اليوم الأوَّل، جاءت صاحبة المكتبة لزيارتي وأحضرت لي حاجياتي وطبقاً من حساء الخُضَر. وهي لاتزال تأتي كلَّ يوم، عند الظهيرة، ومعها طبق الحساء. وأقول لها إنّهم هنا يعتنون بغذائي، فالحارسُ يُحضر لي من المطعم المقابل وجبةً كاملة مرّتين في اليوم، إلاَّ أنّها تصرّ على إحضار طبق الحساء. فأحتسي منه جرعاتٍ لياقةً منِّي ثمَّ أعطي الطبق للحارس الّذي يلتهمُ ما تبقّى فيه.

أعتذر لصاحبة المكتبة عن الفوضى العارمة الّتي خلَّفتُها في شقَّتها.

فتقولُ لي:

ـ لا عليك. لقد نظّفتها بمساعدة ابنتي. وجدنا أكواماً من الأوراق. أحرقتُ منها الأوراق المدعوكة وتلك المرميّة في سلّةِ المهملات. أمّا ما تبقّى فتركته على الطاولة. ولكن رجال الشرطة جاؤوا واستولوا عليه.

أمكث لهنيهة صامتاً، ثمّ أقول:

ـ لك في ذمّتي إيجار شهرين.

تضحك:

ـ لقد جعلتك تدفع إيجاراً مُرتفعاً لا أظنّ أنَّ تلك الشقّة الضيّقة تستحقّه. وبأيّةِ حال إذا كنت مصرّاً على التسديد، فبإمكانك أن تفعل فور عودتك. ربّما، العام المُقبل.

أقول لها:

ـ لا أعتقد أنّني سأعود. سفارة بلادي هي الّتي ستسدّد ديوني.

تسألني إذا كنتُ في حاجة لأَيّ شيء، فأقول:

ـ أجل، أريد أوراقاً وأقلاماً. ولكنّي لا أملك فلساً واحداً.

فتقول:

ـ كان ينبغي أن أفطن لهذا الأمر من تلقاء نفسي.

وفي اليوم التالي، تأتي ومعها طبق الحساء ورزمة من الأوراق المُسطّرة بمربّعات وبضعة أقلام.

أقول لها:

ـ شكراً. ستدفع لك سفارة بلادي مقابل كلّ هذا.

فتقولّ

ـ أنت لا تكُفَّ عن التفكير في الديون وكيفيّة تسديدها. هلاّ حدّثتني بأمور أخرى. مثلاً، ماذا تكتب؟

ـ لا أهميّة على الإطلاق لما أكتب.

تصرّ:

ـ ما يثير اهتمامي هو أن أعرف إذا كنت تكتب أموراً حقيقيّة أو أموراً متخيَّلة.

فأجيبها أنّني أحاول أن أكتب قصصاً حقيقيّة، ولكنْ، في لحظةٍ ما، تُصبح القصّة بحقيقتها بالذّات فوق ما أُطيقه وأحتمله، وعندئذ أجدني مُرغماً على تبديل معطياتها. وأقول لها إنّني أحاول أن أسردَ قصّتي، ولكنّني لا أستطيع، ولا أملك الجرأة، لأنّها تؤلمني. ولذلك أُجَمِّلُ كلَّ شيء وأصف الأمور، لا كما جَرَت بالفعل، بل كما كنتُ أودّ أن تجري.

تقول:

ـ بلى. قد تكون حياة الواحد منّا أشدَّ كآبةً من أشدِّ الكتب كآبة.

twitter @baghdad_library

أقول:

ـ بالضبط. إنَّ الكتاب، مهما كان كئيباً، لا يمكن أن يكون بمثل كآبة حياة.

وبعد صمت، تسأل:

ـ ما سبب عَرَجك، أهي حادثة؟

ـ لا، إنَّه مرض ألمّ بي في طفولتي.

وتضيف:

ـ ولكنّه يكاد يُلْحَظ.

فأضحك.

مجدَّداً أصبح لديّ ما أحتاجه للكتابة، ولكنْ ليس لديَّ ما أشربه، ولا أملك سيكارة واحدة، باستثناء لفافتين أو ثلاث يقدّمها لي حارسي بعد الطعام. فأطلب مقابلة ضابط الشرطة، فيُلبّى طلبي على الفور. مكتبه في الطبقة العليا. أصعد إليه. وأجلسُ على كرسيّ قبالته. شعره أصهب وتكسو وجهه بقع كبيرة من النّمش. على الطاولة، أمامه، رقعة شطرنج ويبدو لي من مواقع الشخوص عليها أنَّ اللّعبة في أوجها. الضابط مستغرقٌ في اللّعبة، وها هو ينقل بيدقاً من مكانه ويدوّن نقلته على دفتر صغير، ثمَّ يرفع عينيه الرّماديّتين نحوي:

ـ ما طلبك؟ التحقيق لم ينتهِ بعد. وقد يستغرق بضعة أسابيع، شهراً، ربّما.

أقول:

ـ لست على عجلةٍ من أمري. أشعر بأنّني مُرتاح هنا. ولكنْ تنقصني بعض الحاجات الصغيرة.

ـ مثلاً؟

ـ أقصد أنَّك لو أضفت إلى مصاريف احتجازي ليتراً من النبيذ وعلبتيْ سكائر كلّ يوم، فلا أعتقد أنَّ السفارة ستبالي عند التسديد.

يقول:

ـ لا. ولكنَّه مضرٌّ بصحّتك.

أقول:

ـ أَوَتُدْرِكُ ما قد يحلّ بمُدْمِنٍ إذا حُرِمَ من الشراب فجأةً؟

يقول:

ـ لا. ولستُ أبالي.

أقول:

ـ قد أُصابُ بالهذيان الرعاشي، وقد أموت بين لحظة وأخرى.

ـ بلا مزاح.

يخفضُ عينيه مستغرقاً في تأمُّل اللّعبة.

فأقول له:

ـ الحصان الأسود.

يواصل استغراقه:

ـ لِمَ الحصان الأسود؟ لا أرى أنَّها نَقلة مفيدة.

أَنْقُل الحصان. فيدوّن النقلة في دفتره. ويفكّر مليّاً. ويُمْسِك بالبرج.

ـ لا!

twitter @baghdad_library

يترك البرج وينظر إليَّ.

ـ هل أنت لاعب ماهر؟

ـ لست أدري. لم أمارس اللّعبة منذ زمنٍ بعيد، ولكن بأيّة حال يبدو أنَّني أُحْسِنُ اللّعب أكثر منك.

فيصبح وجهه أشدّ حمرة من بقع نمشه:

ـ لم أبدأ بمزاولة هذه اللّعبة إلاَّ منذ ثلاثة أشهر، ودون أن أستعين بأحد. أبإمكانك أن تعطيني بعض الدروس؟

أقول:

ـ هذا يسرّني. ولكن ينبغي أن لا تغضب إنْ تغلّبت عليك.

يقول:

ـ لا أبالي بِمَنْ يتغلّب على مَنْ. كلّ ما أريده هو أن أتعلّم.

عندئذٍ أنهض:

ـ بإمكانك أن تأتي إليّ مع لعبتك متى تشاء. والأفضل أن يكون ذلك عند الصّباح، لأنَّ الذهن عند الصباح يكون أكثر تيقُّظاً منه في فترة بعد الظهر أو المساء.

يقول:

ـ شكراً.

يخفضُ عينيه ولا يستغرق مجدّداً في تأمّل اللّعبة، أنتظر بعض الوقت، ثمَّ أتنحنح.

ـ وماذا بشأن النبيذ والسكائر؟

يقول:

ـ ما مِنْ مشكلة، سوف أُصْدِرُ أوامري بهذا الشأن، وستحصل على سكائرك ونبيذك.

أغادر مكتب الضابط. وأنزل إلى الباحة وأمكث هناك. أجلس على المقعد الخشبي. طقس الخريف هذا العام بالغ الطراوة. تغرب الشمسُ فتتلوّن السماء بالبرتقالي والأصفر والبنفسجي والأحمر وبألوان أخرى لا أسماء لها.

ألعب الشطرنج مع الضابط تقريباً كلَّ يوم ولمدّة ساعتين. وغالباً ما تكون الأدوار طويلة؛ فالضابط يفكّر كثيراً ويدوّن كلّ نقلةٍ ويخسر دائماً.

ألعبُ أيضاً الورق مع حارسي في فترة ما بعد الظهر، عندما تضع صاحبة المكتبة أشغال الصوف في حقيبتها وتذهب لتفتح دكّانها. إنَّ ألعاب الورق في هذه البلاد لا تشبه مثيلاتها في أيّ بلد آخر. ومع أنّها بسيطة والحظُّ هو المرجِّح في معظم الأحيان، فإنّني أخسر باستمرار. نلعب مقابل رهان مالي، ولكن بما أنّني لا أملك مالاً، فإنَّ حارسي يكتفي بتدوين ما أدين له به على لوح صغير. وبعد انتهاء كلَّ دور يضحك عالياً وهو يردّد:

ـ إنّي زوجٌ مخدوع! إنّي زوجٌ مخدوع!

مازال عروساً، وستنجب زوجته مولودهما الأوّل بعد بضعة أشهر.

ـ إنْ رزقتُ ولداً وكنتَ لاتزال هنا، فسأمحو ديونك عن اللّوح.

غالباً ما يتحدّث عن زوجته، يخبرني كم هي جميلة، خصوصاً في هذه الأيّام. فقد ازداد وزنها وتضاعف حجم نهديها وعجيزتها. ويروي لي، بالتفصيل المملّ، كيف جرى أوّل لقاء بينهما، ثمَّ يحكي عن «تطوّر علاقتهما» ونزهاتهما الغراميّة في الغابة، وكيف صدّته في البداية، ثمَّ كيف استطاع أن يتغلَّب على تمنُّعِها، ويحكي عن زواجهما السريع الّذي أصبح اضطراريّاً بسبب حَمْلها منه.

twitter @baghdad_library

ولكنّ ما يرويه بالتفاصيل الأدقّ وبمتعةٍ لا تضاهى، فهو طعام العشاء الّذي أعدّته له ليلة البارحة. كيف حضّرته، والمطيّبات الّتي استخدمتها، وكيف وكم استغرق إعداده من وقت، ذلك أنّه «كلّما نضج على نار خفيفة، كان أفضل وطاب مذاقه أكثر فأكثر».

أمّا الضابط فلا يتكلّم، ولا يروي شيئاً. مرّة واحدة أسرّ إليّ أنّه يتمرّن على اللّعب حسب مدوّناته مرّةً في فترة بعد الظهر في مكتبه، ومرّة ثانية عند المساء في منزله. وسألته إذا كان متزوّجاً، فأجابني رافعاً كتفيه:

ـ متزوّج؟ أنا؟

صاحبة المكتبة لا تروي شيئاً هي أيضاً. تقول إنّه ليس لديها ما تحكيه؛ لقد ربّت ولدين، وهي أرملة منذ ستة أعوام، وهذا كلّ شيء. وعندما تسألني عن حياتي في البلد الآخر أجيبها بأنّ ما لديّ لأرويه عن حياتي هناك أقلّ بكثير ممّا لديها، لأنّني لم أربِّ أولاداً ولم أَحْظَ بزوجة!

وتقول لي ذات يوم:

ـ أحْسَبُ أنّنا مُتجايلان.

فأقول معترضاً:

ـ إنّ هذا ليدهشني، فأنتِ تبدين أصغر سنّاً بكثير.

فيتورّد وجهها للإطراءِ:

ـ هيّا. أنا لا أستجدي الإطراء. إنّما أردْت أن أقول إنّكَ لو أمضيت طفولتك في هذه المدينة بالفعل، لكنّا ارْتَدْنا المدرسة نفسها بالتأكيد.

فأقول:

ـ بلى، غير أنّي لم أذهب إلى المدرسة قطّ.

ـ غير معقول. حتّى في ذلك الوقت كان التعليم إجباريّاً.

ـ لم يكن كذلك بالنّسبة إليّ. لقد كنتُ متخلِّفاً عقليّاً في ذلك الوقت.

فتقول:

ـ ألا يمكن أن يتحدَّث المرء إليك بجدّيّة. إنّك لا تكفّ عن المزاح.

twitter @baghdad_library

إنّي مصاب بمرضٍ عضال. في مثل هذا اليوم بالذّات، من العام المنصرم، أدركتُ ذلك.

بدأ الأمرُ في البلد الآخر، في موطني بالتبنّي، ذات صباحٍ من شهر تشرين الثاني. عند الخامسة فجراً.

في الخارج، مايزالُ اللّيل مخيّماً. وأنا أتنفَّسُ بصعوبة. ألمٌ مبرِّح يخنق عليَّ أنفاسي. ألمٌ يندلعُ في صدري ويسري في ضلوعي وظهري وكتفيّ وذراعيّ وحلقي وقذالي وفكيَّ. لكأنَّ يداً هائلة تودّ أن تَسْحَقَ قامتي برمّتها.

أمدُّ يدي على مهل وأضيء المصباح القائم بجانب السرير.

أجلسُ مُتهمّلاً على السرير. أنتظر. أنهض. أذهب إلى غرفة المكتب حيث الهاتف. أجلسُ مجدّداً على الكُرسي. هل أستدعي سيّارة الإسعاف. لا! ليس الإسعاف. أنتظر.

أذهبُ إلى المطبخ، وأصنع لنفسي قهوة. دون عَجَل. دون أن أتنفَّس بعمق. مجرّد تنفُّسٍ بطيء، على مهل، وبهدوء.

بعد احتساء القهوة، أذهب لأستحم، وأحلق ذقني وأغسل أسناني. ثمَّ أعود إلى الغرفة لأرتدي ثيابي. أنتظر حتّى الثامنة صباحاً وأتصل هاتفيّاً، لا بالإسعاف، بل لأطلب سيَّارة أجرة بعد اتصالي بطبيبيَ المعتاد.

يستقبلني على جناح السرعة. يُصغي إليّ، صورة أشعّة لرئتيَّ، فحص للقلب وقياس ضغط الدم.

ـ هيّا. بإمكانك أن ترتدي ثيابك.

وها نحن وجهاً لوجه في غرفة مكتبه.

ـ أما زلت تدخّن؟ كم؟ أما زلت تشرب؟ كم؟

أجيب دونما كذب. أعتقد أنّني لم أكذب عليه أبداً. أعلم أنّه لا يُبالي لا بصحّتي ولا بمرضي.

يدوّن في إضبارته، وينظر إليَّ:

ـ أنت تفعل كلَّ ما يسبِّب تدميرك. هذا شأنك. فالأمر لا يعني سواك. لقد قلت لك أن تمتنع نهائيّاً عن التدخين والشراب منذ عشر سنوات. ومازلت تدخّن وتشرب. ولكنْ إذا كنت تريد أن تحيا بضع سنوات أخرى فعليك أن تمتنع فوراً.

أسأله:

ـ ما علّتي؟

ـ ذبحة صدريّة، على الأرجح، إنّه أمر متوقَّع، ولكنّي لست أخصائيّاً في أمراض القلب.

ويعطيني ورقة:

ـ أعهدُ بك إلى اختصاصي مشهور. خُذ هذا التحويل واقصده في مستشفاه لكي يجري لك فحصاً دقيقاً. وليكن ذلك في أسرع وقت ممكن. وفي أثناء ذلك عليك بهذه الأقراص عندما تشعر بألم.

يناولني وصفة طبيّة. وأسأله:

ـ هل أحتاج إلى جراحة؟

يقول:

twitter @baghdad_library

ـ إذا كانت الجراحة لاتزال مجدية.

ـ وإلاَّ؟

ـ قد تتعرَّض لنوبة سُدادٍ في أيِّ وقت.

أقصدُ أقرب صيدليّة لشراء الدواء فأحظى بعلبتين من الأقراص. في إحداهما أقراص مهدّئة شائعة الاستعمال؛ أمّا الأخرى فأقرأ عليها: «ترينيترين». يوصف للذبحة الصدريّة؛ المحتويات: نيتروغليسيرينوم».

أعود إلى منزلي وأبتلع قرصاً من كلِّ علبة، وأستلقي على السرير. وسرعان ما تزول الأوجاع فأنام.

أطوف في شوارع مدينة طفولتي. إنَّها مدينة ميتة، نوافذ المنازل وأبوابها مُغلقة، وصمْتٌ ثقيلٌ يرين عليها.

أصل إلى شارعٍ عتيق تصطفُّ على جانبيه منازل مبنيّة من الخشب، ومخازن حبوب متداعية. الأرض ترابيّة وكم يطيب لي أن أسير حافي القدمين على ترابها.

ومع ذلك يبدو ليَ الصمت مشحوناً بالتوتّر.

أستدير فأرى كَوْجراً عند الطرف المقابل للطريق. حيوان رائع، بُنيّ مُذهَّب، يَلمع وبره الحريريّ تحت أشعّة الشمس الحارقة.

فجأةً يشتعل كلُّ شيء. المنازل والمخازن تشتعل بنيرانٍ مُستعرة وينبغي أن أواصل سيري في هذا الشارع الملتهب، لأنَّ الكَوْجر

يشرع، هو أيضاً، بالسيرِ ويتبعني عن بُعدٍ بخطواتٍ جليلة متباطئة.

أين الملاذ؟ ما من مفرّ. النيران أو الأنياب المفترسة.

ربّما في آخر الشارع؟

لابدَّ أن تكون للشارع نهاية في مكان ما، كلُّ الشوارع تنتهي في مكان ما، تفضي إلى ساحة، أو إلى شارع آخر، أو إلى الحقولِ، إلى الأريافِ، إلاَّ إذا كان الشارع طريقاً مسدوداً، ولابدَّ أن يكون كذلك؛ بلى، هو طريق مسدود.

أشعر بأنفاس الكَوْجَر اللاّهث خلفي، وقد أصبح بجواري. لا أجرؤ على الالتفات نحوه، ولا أقوى على التقدّم، تتسمَّر قدماي في الأرض. أنتظر في هَلَعٍ لحظة انقضاض الكَوْجَر عليّ من الخلف ليمزّق أوصالي من الكتفين حتَّى الرّدفين، ويُهشِّم رأسي ووجهي.

غير أنَّ الكَوْجَر يتجاوزني، ويُتابعُ طريقه؛ غير مكترث، ليربض عند قدميْ طفلٍ أراه هناك، عند طرف الشارع؛ طفل لم يكن هنا من قبل، أمّا الآن فهو هنا، ويداعب فروة الكَوْجَر الرابض عند قدميه.

يقول لي الطفل:

ـ ليس شرساً، إنّه لي. لا ينبغي أن تخاف منه. إنَّه لا يفترس النّاس، ولا يأكل اللّحوم، إنَّه لا يأكل إلاَّ الأرواح.

تلاشت النيران، وخمدت الحرائق، وأصبح الشارع كومةً من الرماد الناعم، البارد.

أسألُ الطّفل:

ـ أنت شقيقي، أليس كذلك؟ أكنتَ في انتظاري؟

يهزّ الطفل رأسه:

twitter @baghdad_library

ـ لا، لا شقيقَ لي ولا أنتظر أحداً. إنّي حارس الصِبا الخالد. إنَّ الّذي ينتظر شقيقه جالس على مقعد في ساحة «برنسيبال». هو شيخ هرِم. وربَّما كان ينتظرك أنت.

أجدُ شقيقي جالساً على مقعد في ساحة «برنسيبال». وحالما يراني ينهض:

ـ لقد تأخّرت، هيّا بنا أسرع.

نصعد الطريق إلى المدافن، ندخلها ونفترشُ عشبها الأصفر. كلُّ شيءٍ من حولنا ينضحُ عَفَناً، الصلبان، الأشجار، النباتات الشوكيّة، الورود. ينبش شقيقي التراب، بطرفِ عصاه، فتطلع ديدانٌ بيضاء.

يقول شقيقي:

ـ لم يمت كلُّ شيء. هذه الكائنات مازالت على قيد الحياة.

تعجّ الديدان فيصيبني منظرها بالغثيان، وأقول:

ـ ما إن نمعن في التفكير حتّى نعجز عن حبّ الحياة.

يرفع شقيقي ذقني بطرف عصاه ويقول لي:

ـ لا تفكّر. انظر! أرأيت سماءً بمثلِ هذه الروعة من قبل؟

أرفع عيني. الشمسُ تغرب فوق المدينة.

أجيب:

ـ لا، على الإطلاق. لم أرَ مثلها في أيّ مكان آخر.

نسير جنباً إلى جنب إلى القصر، نقفُ في باحته، بمحاذاة السور. يتسلَّق شقيقي الجدار، وما إن يصل إلى قمّته حتّى يروح يرقص على أنغامِ موسيقى كأنَّها تنبعثُ من نفق تحت الأرض. يرقص ملوّحاً بيديه نحو السّماء، نحو النجوم، نحو القمر الّذي يَطْلَعُ بدراً. خيال

نحيل في معطفه الأسود الطويل، يتقدّم على حافة الجدار راقصاً، وأتبعه من الأسفلِ راكضاً، صارخاً:

ـ لا! لا تفعل هذا! توقّف! انزل! سوف تقع!

يتوقّف عند أعلى الحائط قبالتي:

ـ ألا تذكر؟ كنّا نتنزّه فوق السّطوح، وما كنّا نخاف السقوط.

ـ كنّا فتيّين، ولم نكن نُصابُ بالدوار. انزل من هناك!

يضحك:

ـ لا تخف، لن أقع، أجيد الطيران. إنّي أُحوِّم في سماء المدينة كلّ ليلة.

يرفع ذراعيه ويقفز، فيخبطُ على بلاط الباحة الإسمنتي عند قدميّ. أنحني وأمسك برأسه الأصلع، بوجهه المتغضّن بين راحتي، وأبكي.

يتحلّل الوجه، وتختفي العينان ولا يبقى بين راحتيّ إلاّ جمجمة مجهولة وهشّة لا تلبث أن تنسرب من بين أصابعي كرملٍ ناعم.

أستيقظ باكياً. غرفتي غارقة في العتمة؛ لقد نمتُ مُعْظَمَ النّهار. أبدّلُ قيمصي المبلّل بالعَرَق، وأغسل وجهي بالماء. وفيما أنظر في المرآة أسألُ نفسي متى كان آخر عهدي بالبكاء. ما عدتُ أذكر.

أشعل سيكارة وأجلس قُبالةَ النافذة، أرى اللّيل يكتنف المدينة. تحت نافذتي حديقةٌ خالية إلاّ من شجرةٍ وحيدة، عارية الأغصان.

twitter @baghdad_library

أبعد منها، منازل، نوافذ تُضاءُ تباعاً وتتكاثر. خلف النّوافذ أناس يَحْيَوْن. حيوات هادئة، وديعة وعادية. أزواج، أولاد، عائلات. أسمع أيضاً ضجيج السيّارات يتناهى من بعيد. وأتساءلْ لماذا يقود النّاسُ سيّاراتهم حتَّى في اللّيل؟ تُرى إلى أين يذهبون؟ ولماذا؟

لن يلبث الموت أن يمحو كلّ شيء.

إنَّه يخيفني.

أخافُ الموتَ، ولكنّي لن أذهب إلى المستشفى.

لقد أمضيت معظم سنوات طفولتي في مستشفى. ومازالت الذّكريات الّتي أحفظها منها أوضح ما تكون. أرى سريري من بين عشرين سريراً آخر، خزانتي في الممشى، كرسيَّ النقّال، عكّازيَّ، صالة التعذيب وبركتها وأدواتها. والبُسُطَ الدوّارة الّتي ينبغي أن أسير فوقها إلى ما لا نهاية مستعيناً بحزام؛ الحلقات المعدنيّة الّتي ينبغي أن أتشبّث بها معلّقاً في الهواء. الدرّاجات الثّابتة الّتي ينبغي أن أحرّك دوّاساتها باستمرار حتّى وأنا أصرخ من الألم.

أذكر ذلك الألم، كما أذكر الرّوائح؛ روائح الأدوية الّتي تمتزج بروائح الدّماء والتعرّق والبولِ والبراز.

مازلتُ أذكر الحقن، وأُزُرَ الممرّضات البيضاء، والأسئلة الّتي لا جوابَ عنها؛ وأذكرُ خصوصاً الانتظار. انتظار ماذا؟ انتظار الشّفاء على الأرجح، ولكن ربّما أيضاً، انتظار شيء آخر.

قيل لي فيما بعد إنّني نقلتُ إلى المستشفى فاقد الوعي من جرّاء إصابتي بمرضِ عضالٍ. كنتُ في الرّابعة من عمري، والحربُ في بدايتها.

أمّا ما كان قبل انتقالي إلى المستشفى، فما عدتُ أذكر منه شيئاً.

المنزل الأبيض ذو المصاريع الخضراء في شارعٍ هادئ؛ المطبخ حيث كانت أمّي تغنّي؛ الباحة حيث كان أبي يُقطّعُ الحطب؛ أكانت السّعادة التامّة في المنزل الأبيض، حقيقةً فيما مضى، أم أنّني

twitter @baghdad_library

ببساطة، كنت أحلم بها أو أتخيّلها خلال اللّيالي الطّوال الّتي أمضيتها في المستشفى، طَوالَ خمسة أعوام؟

وذاك الّذي كان ينام في السرير الآخر في الغرفةِ الصغيرة، ويتنفّس بوتائر أنفاسي، ذلك الشقيق الّذي أعتقد اليوم أنّني مازلت أعرف اسمه، هل مات، أم أنّه لم يوجد أصلاً؟

ذات يوم نُقِلْنا إلى مستشفى آخر. وكان اسم مشفانا الجديد «مركز إعادة التأهيل». ولكنَّ هذا لا يعني أنّه ليس بمستشفى. الغرفُ والأسرّة والخزائن والممرّضات، والتمارين الموجعة الّتي لا تنتهي.

كان المركز المذكور قائماً وسط باحة شاسعة. وكان بإمكاننا أن نغادر المبنى متى شئنا لنتخبَّط في بركةٍ من الوحل. وكلّما أفرطنا في التمرّغ في الوحل افترّت ثغور الممرّضات عن ابتسامات الرّضى. كما كان باستطاعتنا أن نمتطي الخيولَ الصغيرة ذات الوبر الطويل فتسير بنا بنزهات متمهّلة عبر الحديقة.

عندما بلغت السّادسة من عمري، بدأتُ أتابع الدّروس في صالةٍ صغيرة من صالات المستشفى. كنّا ثمانية تلاميذ أو اثني عشر تلميذاً، ويختلف العدد وفق ظروفنا الصحيّة، نتابع الدّروس الّتي تُعطيها كلّ يوم مُدَرّسة تُعنى بتعليمنا.

لم تكن المدرّسة ترتدي المبذل الأبيض كالممرّضات، بل تنانير قصيرة وضيّقة وبلوزاتٍ ملوّنة. وأحذية ذات كعوبٍ عالية. ولم تكن تصفّف شعرها أو تُغطّيه بقبّعة، بل تتركه مُسدلاً على كتفيها، لونه بلون ثمار الكستناء الّتي تتساقط من أشجار الحديقة في شهر أيلول (سبتمبر).

كنت أحشو جيوبي بهذه الثّمار ذات القشرة اللّامعة. أجمعها

لأرشق بها الممرِّضات والنّاظرات. وفي المساء كنت أرشق بها أسرّة الّذين يئنّون أو ينتحبون لإسكاتهم. حتّى إنّي رميت بعضها على زجاج المُسْتَنْبت حيث يعنى جنائني عجوز بزرع الخسّ الّذي كنّا مرغمين على أكله. وذات صباح، في وقت مبكر جدّاً، وضَعْتُ حفنةً من ثمار الكستناء هذه أمام باب غرفة المديرة لكي تتعثّر وتنزلق على درجات السلّم، ولكنَّها تمالكت سقطتها واستوت جالسةً على مؤخّرتها اللّحيمة، ولم تُصَب بأي كسر.

في ذلك الحين، كنتُ قد هجرتُ كرسيَّ النقّال وصار بإمكاني أن أسير مُستعيناً بعكّازين، وكانوا يقولون لي دائماً إنّ حالتي في تحسُّن مستمرّ.

كنتُ أتابع دروسي من الثّامنة صباحاً حتّى الظُّهر. وبعد طعام الغداء، أنتهز فترة القيلولة، بدل أن أنام، لمطالعة الكتب الّتي تعطيني إيّاها المدرّسة أو تلك الّتي أستعيرها من مكتب المديرة حين تكون غائبة عنه. وخلال فترة ما بعد الظهر أنكبُّ على مزاولة التمارين الرّياضيّة كما يفعل الجميع، وعند المساء أنصرف إلى كتابة فروضي المدرسيّة.

كنتُ أنهي فروضي على عجل لأنصرف إلى كتابة الرّسائل. رسائل إلى المدرّسة. لا تصلها. ورسائل إلى أهلي وإلى شقيقي. وما كنتُ أرسلها قطّ. فقد كنتُ أجهل عنوان إقامتهم.

لقد أمضيت ثلاث سنوات تقريباً على هذه الحال. وأصبحتُ، في هذه الأثناء قادراً على السير مستعيناً بعصا لا بالعكّازين. كما أصبحت أجيد القراءة والكتابة والحساب. لم تكن المدرّسة تمنحنا علامات تمييزاً لقدراتنا، ولكنّني غالباً ما كنت أحظى بنجمة مذهّبة

twitter @baghdad_library

تُلصق بقرب اسمي على اللّائحة المعلّقة على الحائط. وكنتُ مميَّزاً في الحساب الذّهني السريع على نحو خاص.

كان للمدرّسة غرفة خاصّة بها داخل مبنى المستشفى، ولكنَّها ما كانت تنام فيها دائماً. تذهب إلى المدينة عند المساء ولا تعود إلاّ في صباح اليوم التّالي. وسألتها، ذات يوم، إذا كانت تريد أن تصحبني إلى المدينة، فأجابت بأنَّ الأمر مستحيل، إذ لا يحقّ لي أن أغادر المركز، ولكنَّها وعدتني في المقابل بأن تحضر لي معها بعض الشوكولاتة. وكانت تعطيني الشوكولاتة في الخفاء لأنّ ما تحضره منها لا يكفي الجميع.

وذات مساء قلت لها:

ـ لقد مَلَلْتُ النومَ مع الفتيان. وأودّ أن أنام مع امرأة.

ضحكت.

ـ أتريد أن تنام في غرفة الفتيات؟

ـ لا. ليس الفتيات. بل مع امرأة.

ـ أيّ امرأة؟

ـ أنتِ، مثلاً، أودّ أن أنام في غرفتك، على سريرك.

قبّلتني في عينيّ:

ـ إن صبيّاً صغيراً في مثل سنّك ينبغي أن ينام بمفرده.

ـ وأنتِ أيضاً تنامين بمفردك؟

ـ أجل، أنا أيضاً.

وذات يوم وافتني إلى مخبئي السريّ الّذي أقمته في أعلى شجرة جوز شكّلت أغصانها نوعاً من القعدة المريحة كنت أستطيع أن أقرأ فيها وأن أشاهد المدينة من بُعد.

قالت لي المدرّسة:

ـ هذا المساء، حين ينام الجميع، بإمكانك أن تأتي إلى غرفتي.

لم أنتظر ريثما ينام الجميع. فبعضهم لا ينام حتّى الفجر. إذ لا أوقات محدّدة لنومهم. فهناك دائماً من ينتحبون طوال اللّيل، ومن يقصدون المراحيض عشر مرّات في اللّيلة، ومن يندسّون في فراشِ آخرين لممارسة بذاءاتهم، ومن يواصلون أحاديثهم حتّى ساعات الفجر الأولى.

على جاري عادتي كلَّ ليلة، وزّعت صفعاتي التأديبيّة على المنتحبين؛ ثمَّ عرّجت على سرير الصبيّ الأشقر المشلول الّذي لا يقوى على الحركة أو الكلام. إنّه يحدّقُ في السّقف طول الوقت، وحين يُخرجونه إلى الباحة يحدّق في السّماءِ مُبتسماً. أمسكتُ يده ووضعت راحتها على خدّي، ثمَّ أمسكتُ وجهه بين يديّ الاثنتين. وابتسم فيما ظلّ يواصل تحديقه في السّقف.

غادرت عنبر النّوم وقصدتُ غرفة المدرّسة. لم تكن هناك. فنمتُ في سريرها. كانت رائحته طيّبة. فغفوت. وعندما استيقظت خلال اللّيل كانت مستلقية بجانبي وقد شبكت ذراعيها فوق وجهها. فأمسكت بذراعيها ووضعتهما من حولي كأنّها تحضنني والتصقت بها، ومكثت على هذه الحال، لا يغمض لي جفن، حتّى الصّباح.

twitter @baghdad_library

كان بعضنا يتلقّى رسائل تقوم الممرِّضات بتوزيعها وقراءتها أحياناً لمن لا يجيد القراءة بنفسه. وفي ما بعد صرتُ أقرأ رسائل من لا يجيدون القراءة حين يطلبون ذلك منّي. وفي معظم الأحيان كنتُ أقرأ على مسامعهم عكسَ ما هو مكتوب تماماً. كأن يصبح مضمون رسالة ما، مثلاً: «ولدنا العزيز، المهمّ أن تبقى كما أنت ولا تشفى. نحن على أفضل ما يرام من دونك. ولا نشتاقُ إليك على الإطلاق. نأمل أن تبقى حيث أنت، لأنّه لا رغبة لنا في إيواء معوّق في منزلنا. ومع ذلك لك منّا قبلات ليست كثيرة؛ كُنْ عاقلاً، لأنَّ مَنْ يُعنَون بك يستحقّون التقدير بالفعل. وما كنّا لنعنى بكَ كما يفعلون. وقد نكون محظوظين لأنّ هناك من يقوم، بالنيابة عنّا، بما كان ينبغي أن نفعله بأنفسنا، ذلك أنْ لا مكان لكَ، بعد الآن، في أسرتنا الّتي يتمتّع كامل أفرادها بصحّة جيّدة. والداك وشقيقاتُك وأشقاؤك».

وقال لي واحد قرأت عليه رسالته:

ـ ليس هذا ما قالته الممرِّضة حين قرأتها.

فأجبته:

ـ لم تقرأ ما ورد فيها بالفعل لكي لا تسبِّب لك أي أسىً. أمّا أنا فقرأتُ ما هو مكتوب. فلك مطلق الحقّ، على ما أعتقد، في أن تدرك الحقيقة.

قال:

ـ بلى، لي الحقّ. ولكنّني لا أحبّ الحقيقة. قبل أن أعرف

الحقيقة كنت أحسنَ حالاً. والممرِّضة كانت محقّة حين قرأت لي الرّسالة بطريقةٍ أخرى.

وكان يبكي.

وبعضنا أيضاً كان يتلقّى طروداً. وفيها الكعك المحلَّى والبسكويت والجامبون والنّقانق والمُربَّيات والعسل. وكانت تعليمات المديرة واضحة بهذا الشأن: إذ ينبغي أن توزّع محتويات الطرود علينا جميعاً دون استثناء. ومع ذلك كان بعض الأولاد يخبّئون بعضاً منها في أسرّتهم أو خزائنهم.

وكنتُ أدنو من أحد هؤلاء وأسأله:

ـ ألا تخاف من أن تكون مسمومة؟

ـ مسمومة؟ لماذا؟

ـ لأنَّ الأهل يفضّلون أن يكون ولدهم ميتاً على أن يكون مقعداً. ألم تفكّر في الأمر من قبل؟

ـ لا، أبداً. أنت كاذب. إليكَ عنّي.

وبعد وقت غير طويل، كنت أرى الولد يرمي بطرده في برميل النفايات.

وكان هناك أيضاً الأهل الّذين يأتون لزيارة أولادهم. وكنت أنتظر قدومهم عند بوّابة المركز. وأسألهم عن غرض زيارتهم واسم ولدهم. وحين يجيبون عن أسئلتي، أقول لهم:

ـ آسف. لقد توفي ولدُكم منذ يومين. ألم تتلقّوا الإخطار بذلك؟

ثمَّ أهرع للاختباء.

وذات مرّة استدعتني المديرة، وسألتني:

ـ لماذا تتصرّف بمثل هذا اللّؤم؟

twitter @baghdad_library

ـ لؤم؟ أنا؟ لا أدرك جيّداً ما الّذي ترمين إليه.

ـ بلى، أنت تدرك جيّداً ما أقصده. لقد بلّغت ذوي أحد الأولاد بوفاته.

ـ وما الخطب في ذلك؟ ألم يكن الولد ميتاً؟

ـ لا. وأنت تعلم ذلك جيّداً.

ـ لابدَّ أنّني أخطأت في الاسم. ذلك أنَّ أسماءهم كلّهم متشابهة.

ـ ما عدا اسمك، أليس كذلك؟ ولكن الحقيقة أنَّ أحداً من الأولاد لم يمت هذا الأسبوع.

ـ حقّاً؟ إذاً، لابدَّ أنّني أخطأت في حساب الأسبوع.

ـ أجل، من دون شكّ. ولكنّي أنصحك، من الآن فصاعداً، أن لا تخلط بين الأسماء أو بين الأسابيع. وأمنعك، منعاً باتاً، من مخاطبة الأهل أو الزوّار. كما أمنعك من قراءة الرّسائل للأولاد الّذين لا يجيدون القراءة.

قلتُ:

ـ إنّما أردتُ المساعدة.

قالت:

ـ أمنعك من مساعدة أحد، أتسمعني؟

ـ أجل، يا سيّدتي المديرة، أسمعك جيّداً. ولكن، من الآن فصاعداً، لا أريد أن أرى من يأتي ويشكو لأنّني لم أُعِنْه على صعود السلّم أو على النهوض حين يقع، أو على فهم دروس الحساب أو إذا رفضت تصحيح أخطاء الإملاء في رسالته. فإذا أردتِ أن أكفَّ عن مدّ يدِ العون للآخرين، فما عليك إلاّ أن تمنعي الآخرين أيضاً من طلب المساعدة.

حدجتني مطوّلاً، وقالت:

ـ حسناً، انصرف.

غادرتُ مكتبها، ورأيت ولداً يبكي لأنّه أوقع تفّاحته ولا يستطيع لمّها عن الأرض. ومررت بمحاذاته قائلاً:

ـ انتحب ما طاب لكَ النحيبُ، إلاّ أنَّ نحيبك لن يعيد إليك تفّاحتك أيّها الأخرق.

وسألني وهو في كرسيّه:

ـ ألا يمكنك أن تعيدها إليّ، أرجوك؟

فقلت له:

ـ ليس عليك إلاّ أن تتدبّر أمورك بنفسك أيّها الأبله.

وعند المساء، جاءت المديرة إلى عنبر الطعام، وألقت علينا خطاباً قالت في ختامه إنّه يجب ألاّ يطلب أحدٌ أيّ مساعدةٍ منّي، وأنَّ المساعدة الممكنة لا تطلب إلاّ من الممرّضات والمدرّسة، وفي بعض الحالات فقط، منها هي، إذا اقتضت الحاجة الماسّة..

إثر ذلك، كان عليَّ أن أذهب مرَّتين في الأسبوع إلى الغرفة الضيّقة بجوار حجرة التمريض حيث تجلس امرأة عجوز على كنبة كبيرة وقد غطّت ركبتيها بغطاء سميك. كان الأولاد الآخرون الّذين يقصدون هذه الغرفة يقولون إنَّ المرأة العجوز لطيفة كجدّة، وأنَّ واحدنا يشعر بالاطمئنان العميق نحوها، وقد استلقى على السّرير بقربها، أو جلس إلى الطاولة يرسم على الورق ما يشاء. كما باستطاعته أيضاً أن يقلّب صفحات الكتب المصوَّرة أو أن يقول كلَّ ما يودّ قوله.

في زيارتي الأولى للمرأة العجوز، لم نتبادل كلمة واحدة، باستثناء «صباح الخير» عند دخولي، وبعد ذلك شعرت بالملل، إذ

twitter @baghdad_library

لم تستلفتني كتبها ولا شعرت برغبةٍ في الرسم، فرحت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً من الباب إلى النافذة ومن النّافذة إلى الباب.

وبعد وقتٍ سألتني:

ـ لماذا تسير هكذا، دون توقّف؟

فتوقّفت لأجيب عن سؤالها:

ـ يجب أن أمرّن ساقي العاجزة. لذلك أمشي كلّما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وليس لديّ ما أفعله الآن سوى المشي.

ابتسمت لي من وراء تجاعيدها:

ـ تبدو لي في حالة جيّدة هذه الساق.

ـ ليس كما ينبغي أن تكون.

ألقيتُ عصاي فوق السّرير، وتقدّمت بضع خطوات، فسقطتُ أرضاً قرب النّافذة:

ـ أرأيتِ، كم هي في أحسن حال؟

وزحفت واستعدت عصاي:

ـ عندما يصبح بإمكاني الاستغناء عن العصا، أكون قد أصبحت على خير ما يرام.

بعد ذلك، حين كان عليَّ أن أذهب إليها في الميعاد المحدّد، كنتُ أفضّل أن أتوارى عن الأنظار. وذات يوم جرى البحث عنّي لساعات، ولم يعثر أحدٌ عليّ. كنت جالساً بين أغصان شجرة الجوز في طرف الحديقة. وحدها المدرّسة تعرفُ هذا المخبأ.

في المرّة الأخيرة، اقتادتني المديرة بنفسها إلى الغرفة الضيّقة بعد طعام الغداء مباشرةً. دفعتني إلى الدّاخل بقوّة فارتميت فوق السرير. ومكثتُ هناك. راحت المرأة العجوز تطرح عليَّ الأسئلة:

ـ أتذكر ذويك؟

أجبتها:

ـ لا، على الإطلاق. وأنتِ؟

وواصلت طرح الأسئلة:

ـ بِمَ تفكّر، عند المساء، قبل أن تنام؟

ـ بالنوم. وأنتِ؟

وسألتني:

ـ لقد قلت لذوي أحد الأولاد أنّ ابنهم قد توفي، لماذا؟

ـ لكي أسعدهم.

ـ لماذا؟

ـ لأنّ من دواعي سرورهم أن يعرفوا أنّ ابنهم ميّت لا مقعد.

ـ وما أدراكَ أنتَ؟

ـ أعرف ذلك، وكفى.

ثمّ سألتني المرأة العجوز مجدّداً:

ـ أتفعل كلَّ هذا لأنَّ أهلك لا يأتون أبداً لزيارتك؟

قلت لها:

ـ وما الّذي يعنيكِ أنتِ؟

فتابعت:

ـ إنّهم لا يكاتبونك ولا يرسلون الطرود. ولذلك تثأر لنفسك من بقيّةِ الأولاد.

نهضتُ عن السرير وقلت:

ـ بلى أثأر منهم ومنكِ أيضاً.

وضربتها بعصاي ووقعتْ.

زعقتْ.

twitter @baghdad_library

استمرّت تصرخ وتولول وواصلتُ ضربها، هناك حيث كنت ممدّداً على الأرض بعد أن وقعتُ. ولم تكن ضرباتي تصيب إلاّ ساقيها وركبتيها.

هرعت الممرّضات اللّواتي سمعن ولولتها. وانقضضن عليَّ وأمسكن بي وأدخلنني غرفة ضيّقة، شبيهة بالأولى، غير أنّها كانت شبه خالية إلاّ من سرير، فلا طاولة مكتب ولا مكتبة. وكانت نوافذها مغطّاة بشبكيّات من الحديد، وبابها موصَدٌ من الخارج.

غفوتُ بعض الوقت.

وعندما استيقظت رحتُ أطرق الباب بكفيَّ، وأخبطه بقدميّ وأصرخ. طالبتهم بأن يأتوا إليَّ بحاجياتي، بفروضي وكتبي.

ولكنْ لم يستجب لصراخي أحد.

عند منتصف اللّيل دخلت المدرِّسة إلى الغرفة واستلقت بجانبي على السرير الضيّق. فأخفيتُ وجهي في شعرها، وسرت رعدة مفاجئة في جسمي. رعدة اهتزّت لها أوصالي، وأطلقت الفُواقَ من فمي، وغشّت عينيّ الدّموعُ وسال المخاط من مُنخريَّ. كنتُ أنتحبُ ولا قدرة لي على التوقّف.

بدأ المركز يفتقر شيئاً فشيئاً للمواد الغذائيّة، وكان ينبغي تحويل الحديقة إلى جنينةٍ للمزروعات المفيدة. وكان على كلِّ مستطيع أن يعمل تحت إشراف الجنائني العجوز. وكنّا نزرع البطاطا واللّوبياء

والجزر. في ذلك الوقت فقط وَدِدتُ لو أنّني كنت لاأزال مُقْعَداً على كرسيٍّ نقّال.

كما باتَ علينا أن نهبط أكثر فأكثر إلى القبو بسبب إنذارات الإغارة، وكان ذلك يحدث دائماً تقريباً أثناء اللّيل. كانت الممرّضاتُ يحملن مَنْ لا يقوى منّا على المشي. وبين أكوام البطاطا وأكياس الفحم كنتُ أجِدُ المدرِّسة، فأحتضنها بقوّة وأقول لها إنّه ينبغي أن لا نخاف.

عندما أصابت القنبلة المركز، كنّا في غرفة الصفّ، ولم تنطلق صفّارات الإنذار. راحت القنابل تتساقط من حولنا فهرع التلاميذ للاحتماء تحت الطاولات، أمّا أنا فمكثتُ واقفاً، كنتُ أتلو قصيدةً من المحفوظات قبل أن يبدأ كلّ هذا. ولكن المدرِّسة هرعت إليَّ وأوقعتني أرضاً وغطّتني بجسمها. كنتُ أشعر بالاختناق. حاولت أن أبعدها عنّي ولكنّها كانت تبدو أكثر ثقلاً فأكثر. وراح سائل كثيف، فاتر ومالح يسيل داخل عينيّ وفي فمي وعلى عنقي، وأغميَ عليَّ.

أفقت لأجد نفسي في صالة الألعاب الرّياضيّة. وكانت إحدى الرّاهبات تمسح وجهي بخرقة مبلَّلة، وقالت لأحدهم:

ـ أعتقد أنّ هذا الولد لم يُصب بجروح.

ورحت أتقيَّأ.

على أرضيّة الصالة وفي كافّة أرجائها، أجساد ممدّدة فوق فُرُشٍ من القشّ. صِغار وكبار. بعضهم يصرخ، والبعض الآخر لا يُحرِّك ساكناً فيصعب أن نعلم يقيناً إذا كانوا أمواتاً أو أحياء. حاولت أن أعثر من بينهم على المدرِّسة ولكنّي لم أجدها. والأشقر الصغير المشلول أيضاً لم يكن موجوداً.

twitter @baghdad_library

في ذلك اليوم راحوا يستجوبونني وطرحوا عليَّ الأسئلة المعهودة، عن اسمي واسم عائلتي وعنواني، ولكنّي أدرتُ لهم الأذن الصمّاء، ولزمتُ الصمت لا أريد الإجابة، لا أريد أن أتكلَّم على الإطلاق. ولذلك اعتقدوا أنّي أصمّ، أبكم، فتركوني وشأني.

حَصَلتُ على عصا جديدة. وذات صباح جاءت إحدى الرّاهبات واصطحبتني مُمسكةً بيدي. قصدنا المحطّة وأقلَّنا القطار، حتّى وصلنا إلى مدينة أخرى. واجتزناها سيراً على الأقدام حتّى وصلنا إلى آخر منزل فيها، بقرب الغابة. وتركتني الرّاهبة هناك، في عُهدة فلاّحة عجوز، اعتدت فيما بعد أن أناديها: «جدّتي».

وكانت تناديني «ابن الكلبة».

هأنذا جالسٌ على مقعد عريض في المحطّة. أنتظر موعد قطاري الّذي لن يصل قبل ساعة من الآن.

من هنا، أرى المدينة كلّها. المدينة الّتي عِشْتُ فيها نحو أربعين عاماً.

فيما مضى، عندما وصلتُ إلى هنا، كانت لاتزال بلدة صغيرة رائعة ببُحيرتها وغابتها ومنازلها العتيقة الواطئة، ومنتزهاتها الكثيرة. أمّا اليوم فقد حالت بينها وبين البحيرة جادة عريضة هي جزء من طريق دوليّة، وقُطعت أشجار غابتها واختفت المنتزهاتُ وارتفعت في سمائها المباني العالية الّتي تشوّه منظرها. أمّا شوارعها العتيقة الضيّقة فأصبحت تزدحم بالسيّارات حتّى أرصفتها. واستبدلت الحانات القديمة بمطاعم لا ذوقَ في تصاميمها، أو بمحالٍّ للأطعمة الجاهزة السريعة يأكل فيها النّاسُ على عجلٍ، ووقوفاً أحياناً.

أتملّى من رؤية هذه المدينة للمرّة الأخيرة. لن أعود إليها. لا أريد أن أموت هنا.

لم أقل لأحد إلى اللّقاء ولا الوداع. فلا أصدقاء لي فيها، ولا صديقات. أمّا عشيقاتي العابرات الكثيرات فلابدَّ أنّهنَّ تزوَّجن الآن، وأصبحن ربّات بيوت، ولابدَّ أنّ العمر قد تقدّم بهنّ. فمنذ وقتٍ ليسَ بالقصير بتُّ لا أتعرَّف بإحداهنَّ إذا مرّت بمحاذاتي في الشّارع.

أحبّ أصدقائي إليَّ، بيتر، الّذي كان وليَّ أمري في صباي، قد مات منذ عامين إثر نوبة قلبيّة. وزوجته كلارا الّتي كانت أولى

twitter @baghdad_library

عشيقاتي والمرأة الّتي علّمتني كيف أحبّ النّساء، انتحرت منذ وقتٍ بعيد، لأنّها ما استطاعت أن تتعايشَ وفكرةَ اقتراب الشيخوخة.

أرْحل ولا أغادرُ أحداً أو شيئاً يمكث هنا مِنْ بعدي. لقد بعتُ كلّ شيء. ولم يكن هذا الكلّ بالشيء الكثير. فأثاث منزلي لا يساوي شيئاً، وأقلّ منه قيمة كتبي. وتمكّنت أن أحصل على قليل من المال من جرّاء بيع البيانو العتيق ولوحاتي، وهذا كلّ شيء.

يصل القطار. فأستقلّه. لا أحمل سوى حقيبة واحدة. أغادر هذا المكان وليس في جعبتي الكثير ممّا كان لي حين قدمتُ إليه. ولم أستطع، في هذا البلد الغنيّ الحرّ، أن أجمع ثروة.

حصلتُ على تأشيرة سياحيّة لدخول موطني الأمّ، تأشيرة صالحة لمدّة شهر واحد فقط، ولكنّها قابلة للتجديد. وآمل أن يكفي ما أملكه من المال للعيش فيه بضعة أشهر، وربّما، مع بعض الحظ، سنة. كما جمعتُ مؤونتي الكافية من علب الدّواء.

في غضون ساعتين أصل إلى محطّة دوليّة. انتظار آخر، ثمّ أستقلّ قطاراً ليليّاً كنتُ حجزتُ فيه سريراً. اخترتُ، طبعاً، السّرير الأوّل من جهة الأسفل، لأنّني أعرف جيّداً أنّني لن أنام، وأنّني سأخرج بين الفينة والأخرى لتدخين سيكارة في الممشى.

إلى الآن، مازلتُ وحيداً في المقطورة.

ثمّ راح المسافرون يفدون إليها شيئاً فشيئاً. امرأة عجوز وصبيّتان ورجلٌ في مثل سنّي تقريباً.

أغادرُ إلى الممشى، أدخّنُ وأتأمّل اللّيل. نحو الثّانية بعد منتصف اللّيل أخلد إلى النّوم، وأعتقد أنّني أغفو قليلاً.

عند الصباح الباكر نصلُ إلى محطّة كبيرة أخرى. ثلاث ساعات من الانتظار أبدّدها بشرب بضعة فناجين من القهوة في المقصف.

وهذه المرّة أستقلّ قطاراً من قطارات بلدي الأمّ. عدد المسافرين قليل جدّاً. المقاعد غير مُريحة والنّوافذ مُتّسخة وصحون السكائر مليئة بالأعقاب والأرضيّة سوداء دَبِقة والمراحيض في حالةٍ مزرية ويستحيل استعمالها. ما من مقطورة مطعم، ما من مقصف. يُخرج المسافرون طعامهم من الأكياس الّتي يحملونها؛ يأكلون ويتركون الورق المشبع بالدهون والقناني الفارغة على مساند النّافذة أو يرمون بها أرضاً، وتحت المقاعد.

مُسافران من بينهم جميعاً يتحادثان بلغة بلادي. أصغي إليهما وألزم الصمت.

أنظر عبر النّافذة. المنظر يتبدّل، إذ نغادر لتوّنا منطقة جبليّة لنصبحَ في امتدادات سهليّة.

تعاودني الأوجاع.

أبتلع أقراصي دون ماء. لم يخطر ببالي أن أحضر معي شراباً ما، ولا أحبّ أن أطلب ذلك من أحد المسافرين.

أغمضُ عينيّ. فأنا أدرك جيّداً أنّنا نقترب من الحدود.

ها قد وصلنا. يتوقّف القطار ويصعد إليه نفر من حرس الحدود والضابطة الجمركيّة ورجال الشرطة. يطلب أحدهم أوراقي الثبوتيّة ثمّ يعيدها إليَّ مشفوعةً بابتسامة. وفي المقابل يخضع المسافران اللّذان يتكلّمان لغة البلاد لاستجواب مطوّل وتفتيشٍ دقيق لحقائبهما.

twitter @baghdad_library

يعاود القطار سيره، ويتوقّف مراراً عند محطّات صغيرة؛ وعند كلِّ توقّف يستقلّه أناسٌ من أبناء البلد فقط.

مدينتي الصغيرة لا تصلها القطارات القادمة من الخارج. أصل إلى المدينة المجاورة، وهي أكثر إيغالاً داخل البلاد، وأكبر أيضاً. سيكون بإمكاني أن أستقلَّ قطاراً يتجه نحو مدينتي على الفور، ويدلّني أحدهم على قطار صغير أحمر من ثلاث مقطورات ينطلق من الرّصيف رقم واحد مرَّةً في كلِّ ساعة. أقفُ محدّقاً في القطار المغادر.

أغادر المحطّة، أستقلّ سيارة أجرة توصلني إلى أحد الفنادق. أصعد إلى الغرفة وأستلقي على السرير فأغفو عل الفور.

عند نهوضي أفتح ستائر النافذة. إنّها تطلّ على الناحية الغربيّة. وهناك، وراء الجبل في مدينتي الصغيرة، تغرب الشمس.

كلَّ يوم أقصد المحطّة، وأقف هناك ناظراً إلى القطار الأحمر يَصل ثمّ يغادر. وبعد ذلك أتنزّه في أنحاء المدينة. وعند المساء أحتسي بضع كؤوسٍ في حانة الفندق، أو في إحدى حانات المدينة، وأتبادل الأنخاب مع مجهولين.

لغرفتي شرفة وأنا أجلس فيها كثيراً الآن وقد أصبح الطقس دافئاً. ومن هناك أرى السماء شاسعةً كما لم أرها منذ أربعين عاماً.

بتُّ أتوغَّل أكثر فأكثر في أحياء المدينة البعيدة، حتّى إنّني أجاوزها أحياناً إلى المناطق الزراعيّة المجاورة حيث أمشي ساعات على غير هدى.

أسيرُ بمحاذاة حائط من حجر ومعدن. خلف هذا الحائط يُغرّدُ عصفور وأرى أغصان شجر الكستناء الّتي تعرّت من أوراقها.

بوّابة الحديد المُطرَّق مفتوحة. أدخل وأجلس على الحجر الكبير المكسوّ بالطحلب، قرب المدخل. كنَّا نسمي هذا الحجر الضخم «الصخرة السوداء» مع أنّها لم تكن يوماً سوداء، بل رماديّة أو زرقاء، أمّا الآن فقد أصبحت خضراء تماماً.

أُنَقِّلُ نظراتي في أنحاء المنتزه فأتعرّف أشياءه. وأتعرّف أيضاً ذلك المبنى الكبير عند طرفه. ربّما كانت الأشجار هي نفسها، ولكنَّ المؤكَّد أنّ العصافير ليست هي نفسها. لقد تصرّمت الأعوام تلو الأعوام. كم تحيا الشجرة؟ كم يحيا العصفور؟ لستُ أدري.

وكم يحيا البشر؟ دهراً بكامله، على ما أعتقد، ذلك أنّني أرى مديرة المركز تدنو منّي.

تسألني:

ـ ماذا تفعل هنا يا سيّد؟

أنهض وأقول لها:

ـ أعاينُ المكان فقط يا سيّدتي المديرة. لقد أمضيت هنا خمسة أعوامٍ من طفولتي.

ـ متى كان ذلك؟

ـ منذ نحو أربعين عاماً أو خمسة وأربعين عاماً. إنّي أعرفك جيّداً. لقد كنت مديرة مركز إعادة التأهيل.

فتصرخ:

ـ يا للوقاحة! اعلم يا سيّد أنّني منذ أربعين عاماً لم أكن قد وُلِدتُ بعد. ولكنّي أتعرّف السَتير(*) من أمثالك من بعدِ أميال. هيّا انصرف الآن أو أستدعي لكَ الشرطة.

(*) شخص خرافي عند الوثنيّين، نصفه الأعلى بشر والأسفل ماعز.

twitter @baghdad_library

أنصرف. أعود أدراجي إلى الفندق حيث أحتسي بضع كؤوس بصحبة رجل لا أعرفه. وأروي له قصّتي مع المديرة:

ـ من المؤكّد أنّها ليست المرأة الّتي تعرفها. فلابدّ أنّ الأخرى قد ماتت منذ وقتٍ بعيد.

فيرفع صديقي الجديد كأسه:

ـ الخلاصة: إمّا أنّ كافّة المديرات يتشابهن عبر الأجيال، وإمّا أنّهنّ يعمّرن طويلاً. غداً سأصحبك إلى مركزك، فتزوره كما تشاء.

في اليوم التالي، يأتي الرّجل الّذي لا أعرفه ليصحبني ويقلّني في سيّارته إلى المركز. وقبل أن نجتاز المدخل، أمام البوّابة، يقول لي:

ـ أَوَتدري؛ المرأة العجوز الّتي صادفتها أمس، هي بالفعل المرأة نفسها. إلاّ أنّها لم تعد مديرة. لا هنا ولا في أي مكانٍ آخر. لقد استقصيت بشأنها. أمّا مركزك فقد أصبح مأوى للعجزة.

أقول:

ـ أودّ فقط أن أرى عنبر النّوم والحديقة.

شجرة الجوز مازالت هنا ولكنّها بدت لي ضامرةً يابسة؛ ولن تلبث أن تموت.

أقول لصاحبي:

إنّ موتها وشيك، شجرتي هذه.

فيقول:

ـ لا تكن عاطفياً. كلّ شيء يموت.

ندخل المبنى. ونمشي في الرّواق، ثمّ ندخل الغرفة الّتي كنتُ أنام فيها، إلى جانب عددٍ كبير من الأولاد الآخرين، منذ أربعين عاماً. أقف عند العتبة، وأنظر. لم يتبدّل شيء فيها.

بضعة أسرّة. جدران بيضاء. أسرّة بيضاء. خالية. فالأسرّة تكون دائماً شاغرةً في مثل هذا الوقت.

أصعد إلى الطبقة العليا راكضاً، وأفتح باب الغرفة حَيْثُ احتجزتُ منفرداً لعدّة أيام. مازال السرير هنا، في الموضع ذاته؛ ومَنْ يدري، ربّما كان السرير نفسه.

ترافقنا امرأة شابّة في طريق عودتنا. تقول:

ـ لقد دمّر المكان كلّياً في القصف. ثمَّ أعيد بناؤه كما كان. أعيد كلّ شيء فيه كما كان. إنّه مبنى جميل، وينبغي ألاَّ يتبدّل فيه شيء.

ذات يوم تعاودني الأوجاع في فترة ما بعد الظهر. فأعود أدراجي إلى الفندق، وأبتلع أقراص الدّواء وأوضّب حقائبي. أدفع حسابي وأستدعي سيّارة أجرة.

ـ إلى المحطّة.

تتوقّف السيّارة أمام المحطّة فأقول للسائق:

ـ اذهب واحجز لي تذكرة لمدينة ك. فأنا مريض.

يقول السّائق:

ـ هذا ليس عملي. لقد أوصلتك إلى المحطّة. والآن انزل. لا أريد مرضى في سيّارتي.

ثمَّ يضع حقيبتي على الرّصيف، ويفتح الباب من ناحيتي:

ـ هيّا ترجَّل من هنا. ترجَّل من سيّارتي.

twitter @baghdad_library

أسحب نقوداً أجنبيَّة من محفظتي، وأمدّها إليه:

ـ لو سمحت.

يدخل السّائق مبنى المحطّة ويُحضر لي تذكرة القطار؛ ثمَّ يعينني على الترجُّل من السيّارة؛ يُرافقني إلى الرصيف رقم واحد مُمسكاً بذراعي وحاملاً حقيبتي، ويمكث بجانبي منتظراً قدوم القطار. وعندما يصل القطار يساعدني على الصعود إليه ويضع حقيبتي بجانبي ويوصي بي مراقب التذاكر.

ينطلق القطار. تكاد المقطورات الثّلاث أن تكون خالية من الركّاب. كما يُمنع التدخين فيها.

أغمضُ عينيَّ وأشعر بأنَّ أوجاعي بدأت تزول. يتوقّف القطار كلَّ عشر دقائق تقريباً. أعلمُ أنّي قمت بمثل هذه الرحلة منذ أربعين عاماً.

توقّف القطار قبل أن يصل إلى محطّة المدينة الصغيرة. هزَّتني الراهبة من ذراعي ثمّ من كتفيّ فلم أحرّك ساكناً. قفزتْ من القطار وهرعت لتختبئ انبطاحاً في الحقول. كلّ المسافرين هرعوا وارتموا انبطاحاً في الحقول. كنت وحيداً في المقطورة، والطائرات تحلّق على ارتفاع منخفض فوقنا وتطلق نيران رشاشاتها على القطار. وعندما خيّم الصمت مجدّداً، عادت الراهبة أيضاً. صفعتني، وعاود القطار سيره.

أفتح عينيّ، سنصل قريباً. وهأنذا أرى السحابة المفضّضة فوق الجبل، ثمّ تتراءى لي أبراج القصر وقِباب الكنائس العديدة.

في الثّاني والعشرين من شهر نيسان (إبريل)، وبعد غياب دام أربعين عاماً، أعود إلى مدينة طفولتي الصغيرة.

لم يتبدَّل شيءٌ في المحطّة. تبدو لي فقط أكثر نظافة، لا بلْ مُزهّرةً أزهاراً خاصّة بالمنطقة لا أعرف اسمها، ولا رأيت مثلها في مكان آخر.

هناك أيضاً باص يغادر وعلى متنه ركّاب القطار القليلون وعمّال المصنع المُقابل.

أمّا أنا فلا أستقلّ الباص. أمكث هناك، أمام المحطّة وبجانبي حقيبتي، مستغرقاً في تأمّل ممرّ أشجار الكستناء في شارع المحطّة المُفضي إلى قلب المدينة.

ـ هل أحمل لكَ الحقيبة، يا سيّد؟

صبيّ في الثّانية عشرة من عمره يقف أمامي.

يقول:

ـ لقد فاتك موعد الباص. والموعد الثّاني بعد نصف ساعة من الآن.

فأقول له:

ـ لابأس. سأذهب سيراً.

يقول:

ـ حقيبتك ثقيلة.

يحمل الحقيبة كأنّه يختبر ثقلها، لكنّه يُصرّ على حملها. أضحك قائلاً:

ـ بلى، إنّها ثقيلة. ولن تستطيع حملها إلاّ لمسافة قصيرة، أعلم. لقد قمتُ بمثل هذا العمل من قبل.

يضع الصبيُّ الحقيبة على الأرض:

ـ حقّاً؟ متى؟

twitter @baghdad_library

ـ عندما كنتُ في مثلِ سنّك. منذ زمن بعيد.

ـ وأين كان ذلك؟

ـ هنا. أمام هذه المحطّة.

يقول:

ـ أستطيع أن أحمل هذه الحقيبة.

أقول:

ـ حسناً؛ ولكن انتظر هنا ولا تتبعني إلاّ بعد عشر دقائق. أريد أن أسير بمفردي. أمّا أنت فَخُذْ وقتكَ كاملاً. لست على عجلةٍ من أمري. وسوف أنتظرك عند «الحديقة السوداء». هذا إذا كانت لاتزال موجودة.

ـ بلى، يا سيّد. مازالت موجودة.

«الحديقة السّوداء» هي منتزه صغير عند طرف ممرّ أشجار الكستناء، ولا وجود للأسود فيه إلاّ سياج الحديد المطرّق الّذي يزنّره. أجلسُ هناك على مقعدٍ أنتظر الصبيّ. وما هي إلاّ هنيهات حتّى يصل، فيضع حقيبتي على مقعد آخر قبالتي ثمَّ يجلس لاهثاً.

أشعل سيكارة، وأسأل:

ـ لماذا تقوم بمثل هذا العمل؟

يقول:

ـ أريد أن أمتلك درّاجة هوائيّة. درّاجة سباق. هلاّ أعطيتني سيكارة؟

ـ لا؛ لن أعطيك سيكارة. إنّني مُشرفٌ على الموتِ بسبب السكائر. فهل تريد أن تموت أنت أيضاً بسببها؟

يقول لي:

ـ من لم يمت بالسيف مات بغيره. . . بأيّة حال، كلّ حكماء العالم يقولون ذلك. . .

ـ وما الّذي يقوله الحكماء؟

ـ إنَّ الكرة الأرضيّة في طريقها إلى الهلاك. ولن يحول شيءٌ دون ذلك. لقد فات الأوان.

ـ أين سمعت مثل هذا الكلام؟

ـ في كلِّ مكان. في المدرسة، وخصوصاً في التلفزيون.

أرمي سيكارتي:

ـ ومع ذلك لن أعطيك سيكارة.

فيقول لي:

ـ أنت لئيم.

فأقول:

ـ أجل، أنا لئيم. وبَعْد؟ أما من فندقٍ في هذه المدينة؟

ـ بلى، بالطبع. هناك عددٌ منها. ألا تعلم؟ يبدو لي أنَّك تعرف المدينة جيّداً.

أقول:

ـ عندما كنتُ مقيماً هنا، لم يكن في المدينة فندق واحد.

يقول:

ـ لابدّ أنّ ذلك كان منذ زمنٍ بعيد. في ساحة «برنسيبال» هناك فندق جديد يُدعى «الفندق الكبير»، لأنّه أكبر فنادق المدينة.

ـ إذاً هيّا بنا.

أمام الفندق يضع الصبيّ حقيبتي على الأرض:

ـ لا أستطيع الدخول يا سيّد، لأنّ عاملة الاستقبال تعرفني، وسوف تخبر أمّي.

twitter @baghdad_library

ـ ماذا؟ أنّك حملت الحقيبة؟

ـ أجل. فأمّي لا تريدني أن أحمل الحقائب.

ـ لماذا؟

ـ لست أدري. لا تريدني أن أفعل ذلك. تريد فقط أن أتابع تعليمي.

أسأله:

ـ والداك؟ ماذا يعملان؟

يقول:

ـ ليس لديَّ والدان. فقط هناك أمّي. ليس لي أب، ولم يكن لي أب من قبل.

ـ وأمّك، ماذا تفعل؟

ـ هذا ما أقوله لك، إنّها تعمل هنا، في هذا الفندق. تقوم بتنظيف الزجاج مرّتين في اليوم. ولكنَّها تريد أن أصبح عالِماً.

ـ عَالِم في أي شيء؟

ـ لا يمكنها أن تعرف أكثر من ذلك، فهي تجهل عمل العلماء. تريدني عالماً فحسب. ربّما تقصد أستاذاً أو طبيباً، على ما أعتقد.

أقول:

ـ حسناً، كم تريد مقابل حملك الحقيبة؟

يقول:

ـ كما تشاء يا سيّد.

أعطيه بعض الدراهم القليلة:

ـ أيكفي هذا؟

ـ أجل، يا سيّد.

ـ كلاّ، يا سيّدي. هذا غير كافٍ على الإطلاق. ولا تقل لي إنَّك

تكبّدت مشقّة حمل هذه الحقيبة الثقيلة من المحطّة إلى هنا لقاء هذا المبلغ الزهيد!

يقول:

ـ أَقْبَلُ بما أُعطاه، يا سيّد. ولا يحقّ لي أن أطلب المزيد. ثمَّ، هناك أناس فقراء، وقد أحمل الحقائب من دون مقابل في بعض الأحيان. أعشق هذا العمل. أعشق الانتظار في المحطّة ورؤية القادمين من سفرٍ. أهل هذه المدينة أعرفهم جميعاً، لمجرّد أن أنظر إليهم. ولكني أحبّ أن أرى أناساً غرباء، مثلك، قادمين من أمكنة بعيدة. أنت قادم من مكان بعيد أليس كذلك؟

ـ بلى، من مكان بعيد جداً. من بلدٍ آخر.

أمنحه ورقة نقديّة وأدخل الفندق.

أنتقي غرفةً عند طرف المبنى حيث يُتاح لي أن أرى السّاحة والكنيسة وحانوت السّمانة والحوانيت الأخرى والمكتبة.

إنّها التّاسعة مساءً، والسّاحة مقفرة. تُضاءُ المنازل تباعاً، وتُقفَل المصاريع وتُسْدَل الستائر. السّاحةُ تُخلي ازدحامها.

أجلس وراء إحدى نوافذ غرفتي، أتأمَّلُ السّاحة، والمنازل، حتَّى ساعة متأخّرة من اللّيل.

لطالما كنت أحلم، في صغري، أن أُقيمَ في منزل من منازل ساحة «برنسيبال»، أيّ منزل بالطبع، خصوصاً المنزل الأزرق حيث كانت المكتبة ولاتزال.

ولكنّي لم أعرف طَوال إقامتي في هذه المدينة الصغيرة، إلاَّ منزل «الجدّة» شبه المتداعي، بعيداً عن وسط المدينة، عند أطراف المدينة، قرب الحدود.

twitter @baghdad_library

خلال إقامتي مع الجَدّة، كنتُ أعمل منَ الصباح إلى المساء، مثلها. كانت تُطعمني وتُؤويني، ولكنّها لم تكن تعطيني مالاً قطّ. والمالُ، آهِ المال، كم كنت أحتاجه لشراء الصابون ومعجون الأسنان والملابس والأحذية. لذلك، كنتُ أقصد المدينة، عند المساء، وأعزف ألحاناً على الهرمونيكا في الحانات. كنتُ أبيع الحطب الّذي أجمعه من الغابة، والفطر والكستناء. وأبيع أيضاً البيض الّذي أسرقه من خُمّ الجدّة، والسّمك الّذي تمرّست باصطياده بسهولة. كنت أسْدي الخدمات لمن يشاء. أنقل المراسيل والرّسائل والطرود، وكنتُ أحظى بثقة النّاس لأنّهم يعتقدون أنّني أبكم أصمّ.

في البداية، لم أكن أخاطب أحداً، حتّى ولا الجدّة، ولكن، فيما بعد، كان عليَّ أن أتلفّظ بالأرقام بقصدِ المساومة.

كنتُ غالباً ما أتسكّع عند المساء في نواحي ساحة «برنسيبال». وأقف أمام واجهة المكتبة، الّتي هي مكتبة ودكّان لبيع القرطاسيّة، مُستغرقاً في تأمُّل الأوراق البيضاء، والكراريس المدرسيّة، والمماحي والأقلام. وكانت أثمانها تفوق مُدَّخراتي وقدرتي على الشراء.

ولكي أكسب المزيد من المال، كنتُ أقصد المحطّة كلّما استطعتُ لأنتظر المسافرين القادمين. وكنتُ أحمل حقائبهم.

وهكذا استطعت أن أشتري بعض الأوراق البيضاء، وقلماً وممحاةً، ودفتراً كبير الحجم رُحْتُ أدوّن فيه أكاذيبي الأولى.

مع انقضاء بضعة أشهر على وفاة الجدّة، جاء أناس إلى منزلي ودخلوا دون استئذان. كانوا ثلاثة، من بينهم رجل يرتدي زيَّ حرس الحدود. أمّا الآخران فكانا في ثياب مدنيّة. مكثَ أحدهما صامتاً مُنهمكاً بتدوين أقوالنا. كان فتيّاً في مثل سنّي تقريباً. أمّا المدني الآخر فقد كان الشيب يغطّي رأسه. ثمّ راح الأشيب يستجوبني:

ـ منذ متى تُقيم هنا؟

فأقول:

ـ لست أدري. منذ تعرّض المستشفى للقصف.

ـ أي مستشفى؟

ـ لست أدري. المركز.

يتدخَّل العسكري ويقول:

ـ أعرف أنّه يقيم هنا منذ توليَّ قيادة المفرزة.

يسأله المدنيّ:

ـ ومتى كان ذلك؟

ـ منذ ثلاثة أعوام. ولكن الفتى كان هنا قبل ذلك.

ـ وما أدراكَ أنتَ؟

ـ لمجرّد أن أراه وهو يعمل في نواحي المنزل كأنَّه أقامَ فيه أبداً.

يلتفت الرّجل الأشيب نحوي:

ـ أتربطك أيّة صلة قرابة بالسيّدة ف. المولودة ماريّا. ز؟

فأقول:

ـ إنّها جدّتي.

يسألني:

ـ ألديك أوراق تثبت هذه القرابة؟

أقول:

twitter @baghdad_library

ـ لا، لا أوراق لديّ. لا أملك سوى الأوراق الّتي أشتريها من المكتبة.

فيقول:

ـ حسناً، حسناً. اكتب عندك!

ويبدأ المدني الشّاب بالتدوين:

ـ إنّ السيّدة ف. المولودة ماريّا، ز. قد توفّيت دون أن يكون لها أيّ وريث شرعي. وعليه فإنّ كلّ ممتلكاتها، المنزل والأرض المحيطة به، تصبح ملكاً للدولة وتوضع في تصرّف الهيئة المشرفة على المدينة ك. الّتي يحقّ لها أن تتصرّف بها على ما تراه ملائماً.

ينهض الرّجال الثّلاثة، فأسأل:

ـ ماذا ينبغي أن أفعل؟

فيتبادلون النّظرات. ثمَّ يقول العسكري:

ـ يجب أن تغادر هذا المكان.

ـ لماذا؟

ـ لأنّ المكان ليس ملكاً لك.

أسأله:

ـ ومتى يجب أن أغادر؟

ـ لستُ أدري.

وينظر إلى الرّجل المدني الأشيب الّذي يجيبني قائلاً:

ـ سنُعلمك في أقرب وقت. كم عمرك؟

ـ قريباً سأبلغ الخامسة عشرة. لا أستطيع المغادرة قبل أن تنضج الطماطم.

يقول:

ـ طبعاً، الطّماطم. لم تبلغ الخامسة عشرة بعد؟ إذاً، لن تواجهنا أيّة مشكلة.

أسأله:

ـ إلى أين سأذهب.

فيصمت لبعض الوقت ويتبادل والعسكريّ نظرات حائرة، ثمَّ يُطرقُ المدني ويقول:

ـ لا تقلق. سنتدبَّر أمرك. المهمّ أن لا تقلق.

يغادر الرّجال الثّلاثة. أتبعهم عن كثب متعمِّداً السّير فوق العشب لكي لا أحدث جلبةً.

يقول حارس الحدود:

ـ ألا تستطيع أن تدعه وشأنه؟ إنّه فتى طيّب ويعمل بكدّ.

فيجيبه المدني:

ـ ليست هذه هي المسألة. القانون هو القانون. وأرض السيّدة ف. أصبحت ملكاً للدولة. وفتاك هذا يُقيمُ هنا منذ نحو سنتين دون أيّة صفة شرعيّة أو قانونيّة.

ـ وما وجه الضير في إقامته هنا؟

ـ لا ضير في ذلك. ولكن قُلْ لي، إذاً! ما بالك تستميت في الدّفاع عن هذا التّافه؟

ـ منذ ثلاثة أعوام وأنا أراه يُعنى، بكدٍّ ونشاط، بحديقته ودجاجاته. ثمَّ إنّه ليس تافهاً، أقصد ليس تافهاً أكثر منك.

ـ أتجرؤ على نعتي بالتافه؟

ـ لم أقل هذا أبداً. قلتُ فقط إنّه ليسَ أكثر تفاهةً منك. ثمَّ إنّي لا أبالي، لا بك ولا به. بعد ثلاثة أسابيع سأسرَّح من الخدمة وعندئذٍ

twitter @baghdad_library

لن يكون عليَّ إلاَّ أن أعتني بحديقتي الخاصّة. أمّا أنت، يا سيّدي، فسوف تحمّل ضميرك وزر روحٍ بشريّة إذا قرّرت تشريد هذا الفتى. عِمْ مساءً، وحاول أن تنام جيّداً.

فيقول المدني:

ـ لن نشرّده. سوف نعتني به.

يذهبون. وبعد ذلك بأيّام قليلة يعودون. الرّجل الأشيب ومساعده الشّاب وبصحبتهما امرأة. إنّها امرأة متقدّمة في السنّ وتشبه مديرة المركز.

تقول لي:

ـ اسمعني جيّداً. نحن لا نريد أن نؤذيك بل نريد أن نعتني بك. سنصحبك إلى منزلٍ جميل فيه أولاد مثلك.

فأقول لها:

ـ لم أعد طفلاً. ولستُ في حاجة لأن يُعنى بي أحدٌ. ولا أريد أن أذهب إلى المستشفى.

ـ إنّه ليس بمستشفى. وهناك تستطيع أن تتابع تعليمك.

نجلس في المطبخ. المرأة تتكلّم وأنا لا أصغي إليها. والرّجل الأشيب يتكلّم هو أيضاً، ولكنّني لا أصغي إليه.

وحده الشّاب الّذي يدوّن كلّ أقوالنا يلزم الصمت، حتّى إنّه لا يرمقني بنظرة واحدة.

وقبل أن يغادروا، تقول لي المرأة:

ـ لا تقلق. نحن في جانبك. وعمّا قريب سنجد الحلّ الأفضل. لن ندعك وحيداً، سوف نعتني بك. سوف ننقذك.

ويضيف الرّجلُ قائلاً:

ـ بإمكانك أن تقضي هذا الصيف هنا. ذلك أنّ أعمال الهدم لن تبدأ قبل نهاية شهر آب (أغسطس).

إنّي خائف. خائف أن أنتقل إلى منزل يُعتنى فيه بي ويُعمَل على إنقاذي. ينبغي أن أرحل من هنا. ولكن، إلى أين عساي أذهب؟

أشتري خارطة للبلاد وتصميماً مفصّلاً للعاصمة. وأقصد المحطّة كلَّ يوم للتثبّت من المواعيد. أسأل عن أسعار التذاكر إلى هذه المدينة أو تلك. فأنا لا أملك سوى القليل من المال، ولا أريد أن أستعين بميراث الجدّة. لقد حذّرتني:

ـ يجب ألاّ يعلم أحد أنّك تملك كلَّ هذا. سوف تُستجْوَب، وتُسجن وتُصادر مقتنياتك. ولا تقل الحقيقة أبداً. تظاهر بأنّك لا تفهم الأسئلة. وإنْ حسبوا أنّك أبله، فلا بأس.

ميراث الجدّة مدفون تحت مقعد قبالة المنزل، في جرابٍ من الكتّان يحتوي على أكوامٍ من المجوهرات والذّهبيات والمال. وإذا حاولت أن أبيع كلَّ هذا، فسوف يتّهمونني بالسرقة.

لقد التقيت الرجلَ الّذي يريدُ عبورَ الحدود في المحطّة.

الوقتُ مساء. الرَجُلُ هنا، أمام المحطّة؛ الوافدون الآخرون غادروا منذ بعض الوقت. وتبدو ساحة المحطّة مقفرة.

يشير الرّجل بيده لأقترب منه. أتقدّم نحوه. لا أرى حقائب بجواره.

أقول:

twitter @baghdad_library

ـ في العادةِ، أحمل حقائب المسافرين. ولكنّي أرى جيّداً أنّك تسافر بلا حقائب.

يقول:

ـ لا، ليس هناك حقائب.

أقول:

ـ إذا كنت أستطيع أن أسدي إليك أيّة خدمة... أرى أنّك غريب عن مدينتنا.

ـ وما الذي يجعلك ترى أنّني غريب؟

أقول:

ـ لا أحد في مدينتنا يرتدي مثل هذه الثياب. ثمَّ إنَّ أهل مدينتنا، لهم جميعهم، سحنة واحدة. سحنة معروفة، مألوفة. ويمكن لواحدنا أن يتعرّف أهل مدينتنا دون أن تكون له معرفة شخصيّة بهم. وعندما يصل غريبٌ ما، نلحظه على الفور.

يتلفَّت الرجل من حولنا:

ـ أتعتقد أنّ أحداً ما قد لاحظ وجودي؟

ـ بالطبع، ولكن ليس لك أن تخشى شيئاً إذا كانت أوراقُك الثبوتيّة حسب الأصول. ما عليك إلاّ أن تتقدّم بها، صباح الغد، إلى قسم الشرطة، وعندئذٍ بإمكانك أن تمكث هنا ما شئت. لا توجد فنادق في مدينتنا ولكنّي أستطيع أن أشير عليك ببعض المنازل الّتي تؤجّر غرفاً.

فيقول لي الرّجل:

ـ اتبعني.

يتجه نحوَ المدينة ولكنّه، بدل أن يسلك الشّارع الرّئيسي، ينعطف يمنةً باتجاه زقاق غير مُعبَّد، ثمَّ يجلس بين دغلين من الأشواك. أجلس بجواره وأسأل:

ـ لماذا تحاول الاختباء؟

فيسألني:

ـ أتعرف المدينة جيّداً؟

ـ أجل، أعرفها جيّداً جداً.

ـ والحدود؟

ـ والحدود أيضاً.

ـ ماذا عن والديك؟

ـ ليس لي والدان.

ـ توفيا؟

ـ لست أدري.

ـ أين تقيم؟

ـ أقيم في منزلي. في منزل الجدّة. لقد توفّيتْ.

ـ مع مَنْ تقيم؟

ـ وحدي.

ـ أين يقع منزلك؟

ـ عند الطرف الآخر من المدينة. قرب الحدود.

ـ أبإمكانك أن تؤويني هذه اللّيلة؟ أملك مالاً كثيراً.

ـ أجل، أستطيع.

ـ أتعرفُ أزقّةً أو ممرّات نسلكها حتّى منزلك دون أن يرانا أحد؟

ـ أجل.

ـ هيّا إذاً. إنّي أتبعك.

نسير خلف المنازل، بين الحقول. وأحياناً نُرْغَمُ على تسلّق أسيجة وحيطان، واجتياز حدائق وفِناءات خاصّة. الوقت ليل والرَّجُلُ يتبعني دون أن يحدثَ جلبةً.

twitter @baghdad_library

ما إن نصل إلى منزل الجدّة حتَّى أطريه بقولي:

ـ لـم تجـد مشقّـةً كبيـرة فـي تتبّـع خُطـاي علـى الـرّغـم مـن سنِّـك المتقدِّمة.

يضحك:

ـ سنّـي المتقـدّمـة؟ أنـا فـي الأربعيـن مـن عمـري، وقـد خضـتُ الحرب. وتمرَّست بعبور المدن خلسةً.

ويضيف بعد هينهة:

ـ أنتَ على حقّ. أصبحت عجوزاً. لقد أبْلَت الحربُ صباي. ألديكَ ما نحتسيه؟

أضع قنينة كحول على الطاولة وأقول:

ـ تريد أن تعبر الحدود، أليس كذلك؟

يضحك مجدَّداً:

ـ وكيف علمت؟ ألديك ما نأكله؟

أقول:

ـ أستطيع أن أصنع لك عجَّة بالفطر. وعندي أيضاً جبن ماعز.

وبينما أنهمك بتحضير الطعام، يحتسي الغريب بضع كؤوس.

ثمَّ نأكل. وأسأله:

ـ كيف استطعت أن تدخل المنطقة الحدوديّة؟ فدخول مدينتنا محظَّر إلاَّ بموجب ترخيص رسمي.

يقول الغريب:

ـ إحدى شقيقاتي تقطن هذه المدينة. فتقدّمت بطلب ترخيص لزيارتها وحصلت عليه.

ـ ولكنّك لم تذهب لزيارتها.

ـ لا. لا أريد أن أسبّب لها المتاعب. خُذْ، أحرق كلَّ هذه الأوراق في موقد الطبّاخ.

ويعطيني بطاقة هويّته وأوراقاً أخرى فأرمي بها في النّار.

أسأله:

ـ لماذا تريد أن تغادر البلاد؟

ـ ليس هذا من شأنك. فقط أطلب منك أن ترشدني إلى الطريق الّتي ينبغي أن أسلكها. وسأترك لكَ كلَّ ما أحمله من مال.

ويضع على طاولة رزمة من الأوراق النقديّة.

فأقول:

ـ ليست تضحية كبرى من قبلك أن تترك لي هذا المبلغ من المال، لأنّك تعلم، بأيّة حال، أنَّ هذه العملة لا تساوي شيئاً في الجهة الأخرى من الحدود.

يقول:

ـ ولكن هنا، وبالنسبة لفتىً مثلك، إنّها تساوي الكثير.

أرمي رزمة الأوراق النقديّة في نيران الموقد:

ـ اعلم جيّداً، أنّني هنا لا أحتاج إلى مال. لديَّ هنا كلّ ما أحتاجه.

نراقب معاً المالَ يحترق. وأقول:

ـ قد تدفع حياتك ثمناً لعبورك الحدود.

يقول الرّجل:

ـ أعلم.

فأقول:

ـ واعْلَم أيضاً أنّ بإمكاني أن أفضح أمرك على الفور. هناك قاعدة

twitter @baghdad_library

لحرس الحدود على مقربة من المنزل، وأنا أعمل لحسابهم، كمرشد.

يقول الرّجل وقد امتقع وجهه:

ـ مرشدٌ، في مثل سنِّك.

ـ وما صلة السنّ بهذا الأمر. لقد سبق لي أن بلِّغت بشأنِ عددٍ من الأشخاص حاولوا أن يعبروا الحدودَ خلسةً. كلُّ ما يجري في الغابة أراه وأبلِّغُ حراس الحدود بشأنه.

ـ ولكن، لماذا تفعل ذلك؟

ـ لأنّهم أحياناً يرسلون إليَّ عملاء متستّرين للتثبُّتِ من صدقِ تعاملي معهم. حتَّى اليوم، كنت مُرغماً على الوشاية بهم جميعاً سواء أكانوا عملاء أم لا.

ـ ولماذا تقول: حتَّى اليوم.

ـ لأنّني، في الصباح الباكر، سأعبر الحدود برفقتك. فأنا أيضاً أودُّ أن أغادر البلاد.

في اليوم التّالي، قبيل الظهر، نحاول أن نعبر الحدود.

الرّجلُ يسيرُ أمامي، لكنَّه سيَّئُ الطالع. قرب الحاجز الثّاني ينفجر به لغم، فيُقتل على الفور. أمّا أنا فأنجو لأنّني على بعد خطوات وراءه.

أراقب السّاحة المقفرة حتّى ساعة متأخّرة من اللّيل. وعندما أخلد إلى النّوم أخيراً، أرى حلماً.

أهبط المنحدر إلى النّهر، أجدُ أخي هناك جالساً على الضفّة يصطاد السمك. أجلسُ بجانبه:

ـ هل الصّيد وفير؟

ـ لا. كنتُ في انتظارك.

ينهض ويطوي قَصَبته:

ـ لم يعد في هذا النّهر سمكٌ، ولا حتّى مياه.

يلتقط حصاةً ويرمي بها حصى النّهر الجافّ.

نسير باتجاه المدينة. أتوقّف أمام منزلٍ طُليَت مصاريعه باللّون الأخضر. يقول شقيقي:

ـ أجل، كان هذا منزلنا. لقد عرفته.

أقول:

ـ عرفته. ولكنّه لم يكن هنا من قبل. كان في مدينة أخرى.

يقول شقيقي مصوّباً:

ـ لا بل في حياةٍ أخرى. والآن هوذا هنا، قائمٌ في الفراغ ومقفر.

نصل إلى ساحة «برنسيبال».

أمام باب المكتبة طفلان اقتعدا طرف السلَّم الذي يفضي إلى الشقّة.

يقول شقيقي:

twitter @baghdad_library

ـ إنّهما طفلاي. أمّهما رحلت.

ندخل المطبخ الواسع. يحضّر شقيقي طعام العشاء. الطفلان يأكلان بصمت، مُطرِقَين.

أقول:

ـ طفلاك سعيدان.

ـ سعيدان جدّاً. سأصحبهما إلى سريرهما.

وحين يعود، يقول لي:

ـ هيَّا بنا إلى غرفتي.

ندخل حجرة واسعة، ويتناول شقيقي زجاجة كان قد أخفاها خلف الكتب في مكتبته:

ـ هذا كلّ ما تبقّى. لقد فرغت الدنان.

نحتسي الشراب، فيما شقيقي يداعب وبر غطاء الطاولة الأحمر:

ـ أرأيت، لم يتبدّل شيء. لقد احتفظت بكلّ شيء. حتّى هذا الغطاء المنفِّر. بإمكانك أن تذهب غداً للإقامة في المنزل.

أقول:

ـ لا رغبة لي في أن أقيم هناك. أودُّ بالأحرى أن ألاعب طفليك.

يقول شقيقي:

ـ طفلاي لا يلعبان.

ـ ماذا يفعلان، إذاً؟

ـ إنَّهما يستعدّان لعبور الحياة.

أقول:

ـ لقد عبرتُ الحياة ولم أعثر على شيء.

يقول شقيقي:

ـ ليس هنالك ما تعثر عليه. ما الذي كنت تبحث عنه؟
ـ أنت. إنّما عدتُ من أجلك.
يضحك شقيقي:
ـ من أجلي؟ أنت تعلم جيّداً أنّني لست سوى حلم. وعليك أن تقبل بذلك. ما من شيءٍ على الإطلاق، حيثما ذهبت.
أشعر بالبرد، أنهض:
ـ لقد تأخّر الوقت، يجب أن أعود.
ـ تعود؟ إلى أين؟
ـ إلى الفندق.
ـ أيّ فندق؟ أنت هنا في دارِك. سأُعرِّفكَ بوالدينا.
ـ بوالدينا؟ أين هما؟

يشيرُ شقيقي إلى الباب البنيّ الذي يفضي إلى الحجرةِ الأخرى من الشقّة.

ـ إنَّهما هناك، نائمان.
ـ معاً؟
ـ على جاري عادتهما.
أقول:
ـ لا ينبغي أن نوقظهما.
يقول شقيقي:

ـ ولِمَ لا؟ سيسعدان برؤيتك مجدّداً بعد كلِّ هذه الأعوام.
أتراجع نحو الباب:
ـ أمّا أنا فلا أريد، ولا أستطيع أن أراهما.

يمسك شقيقي بذراعي:

twitter @baghdad_library

ـ لا تريد، لا تستطيع. أمّا أنا، فأراهما كلَّ يوم. يجب أن تراهما ولو مرَّة واحدة؛ مرّة واحدة فقط!

ويجرّني شقيقي بقوَّة نحو الباب البنيّ. أمدّ يدي الطليقة وألتقط عن الطاولة منفضة سكائر من الزجاج المحجَّر وأضرب بها شقيقي على مؤخّر رأسه.

يرتطم جبينه بالباب، ويسقط شقيقي أرضاً؛ الدّماء تسيل من رأسه وتتجمّع في نُقع واسعةٍ على أرضيّة الحجرة.

أغادر المنزل مُسرعاً وأجلس على مقعد في الخارج. قمرٌ هائل يُنير السّاحة المقفرة.

يتوقّف عجوز أمامي، يطلب منّي سيكارة. فأعطيه واحدة وأشعلها له.

ويمكث، قبالتي، واقفاً، يدخّن سيكارته.

وبعد هنيهاتٍ، يسأل:

ـ إذاً، هل قتلته؟

أقول:

ـ أجل.

يقول العجوز:

ـ لقد فعلت ما كان ينبغي أن تفعله. أحسنت. قلّة قليلة من النّاس يفعلون ما يتوجّب عليهم فعله.

أقول:

ـ قتلته لأنّه أراد أن يفتح الباب.

ـ خيراً فعلت. لقد أحسنتَ فعلاً بمنعه. كان ينبغي أن تقتله.

وهكذا يعود كلُّ شيء إلى نصابه، إلى نصاب الأشياء السويّة.

أقول:

ـ لكنَّه لن يكون هنا بعد الآن. وما جدوى نصاب الأشياءِ السويّة إذا كان عليه، هو، أن يغيب إلى الأبد.

يقول العجوز:

ـ على العكس. من الآن فصاعداً سيكون إلى جانبك في كلِّ لحظة وفي كلِّ مكان.

يبتعد العجوز، يقرع باب منزلٍ صغير، ويدخل.

عندما استيقظت كانت الحركة على أشدّها في السّاحة. النّاسُ في حركةٍ دؤوبة إمّا سيراً على الأقدام وإمّا على درّاجات هوائيّة. أمّا السيّارات فقليلة جدّاً. الحوانيت فتحت أبوابها، وكذلك المكتبة. في أروقة الفندق، أسمع هدير المكانس الكهربائيّة.

أفتح باب غرفتي وأنادي عاملة التنظيفات:

ـ هلاّ أحضرتِ لي فنجان قهوة؟

تستدير نحوي. إنّها امرأة شابّة ذات شعر أسود فاحم.

ـ لا أستطيع أن أقوم بخدمة الزبائن، يا سيّد، فأنا لستُ سوى عاملة تنظيفات. نحن لا نقوم بخدمة الغرف. فهناك مطعم ومقصف في صالة الفندق.

أعود إلى غرفتي؛ أغسلُ أسناني وأستحمّ، ثمَّ أعودُ إلى فراشي الدافئ. أشعر بالبرد.

يقرعُ الباب وتدخل عاملة التنظيفات وتضع صينيّة على الطاولة:

twitter @baghdad_library

ـ ستدفع ثمن القهوة في المقصف متى شئت.

وتستلقي، بجانبي، على السّرير، وتدني وجهها باذلةً شفتيها الرّخصتين. أشيح بوجهي عنها.

ـ لا، يا حلوتي. إنّي عجوز ومريض.

فتنهض، وتقول لي:

ـ لا أملك إلاّ القليل من المال. لا أجني من عملي هنا إلاّ القليل القليل. وأودّ أن أشتري درّاجة سباق كهديّة لابني في عيد ميلاده. وليس لي زوج.

ـ حسناً.

أعطيها المال، دون أن أعرف إذا كان ما أعطيه قليلاً أو كثيراً، ذلك أنّي لم أعتد بعد الأسعار المتداولة في هذه البلاد.

عند الثالثة من بعد الظهر، أغادر الفندق.

أسير متباطئاً. ومع ذلك، في غضون نصف ساعة، أصلُ إلى طرفِ المدينة. وهناك، في الموضع الذي كان فيه منزل الجدّة، أرى ملعباً فسيحاً وأولاداً يلعبون.

أمكث لبعض الوقت جالساً عند ضفّة النّهر، ثمَّ أعود أدراجي إلى المدينة. وفي طريق عودتي أمرّ بوسط المدينة، وأزقّة القصر، وأسير صُعُداً إلى المدافن، ولكنّي لا أعثر على قبر الجدّة.

كلَّ يوم أتسكّع هكذا، طوال ساعات في شوارع المدينة، خصوصاً في الأزقّة حيث المنازل مطمورةً في الأرض، ونوافذها على مستوى الطريق. أجلس أحياناً في أحد المنتزهات، أو على أحد حيطان القصر الواطئة، أو فوق قبر في المدافن، وعندما أشعر بالجوع أقصد أوّل حانة، وآكل هناك ما يقدّمونه، لا فرق. بعد ذلك، أحتسي بضع

كـؤوس بصحبـةِ عمّـال وأنـاس بسطـاء. لا أحـد يعـرفنـي. لا أحـد يتذكّرني.

أدخل ذات يوم المكتبة لأشتري أوراقاً وأقلاماً. الرّجل السمين الذي كنت أراه في طفولتي ما عادَ هنا؛ هناك امرأة تُعنى بالمكتبة الآن. إنّهـا تجلـس علـى كنبـة قـرب النّـافـذة المطلّـة علـى الحـديقـة، منهمكةً بأشغال الصوف. تبتسم لي:

ـ إنّي أعرفك. أقصد أنّي أراك دائماً حين تغادر الفندق وحين تعود إليه كلّ يوم. باستثناء اللّيالي التي تعود فيها متأخّراً وأكون نائمة. شقّتي في الطّبقة العليا من المكتبة وأحبُّ أن أراقب السّاحة عند المساء.

أقول:

ـ وأنا أيضاً.

تسأل:

ـ أنت في إجازةٍ هنا؟ هل ستمكث طويلاً؟

ـ أجل، في إجازة. إذا جازت العبارة. وأودّ أن أمكث أطول وقت ممكن، فالأمر مرهون بتأشيرة الدخول وبالمال الذي أملكه.

ـ تأشيرة الدخول؟ أنتَ أجنبيّ؟ لا تبدو لي كذلك.

ـ لقد أمضيت طفولتي في هذه المدينة. ولدت في هذه البلاد ولكنّي أحيا في الخارج منذ زمن بعيد.

تقول:

ـ كثيـر مـن الأجانـب يـأتـون، الآن، بعد أن أصبـح البلـد حـرّاً. وأولئك الذين رحلوا بعد الثّورة يعودون في زيارات قصيرة؛ ولكن هنـاك أعـداد كبيـرة مـن محبّـي الاستكشـاف والسيّـاح. سـوف تـرى

twitter @baghdad_library

بنفسك، مع تحسّن الطقس سيتوافد السيّاح تباعاً في باصات كبيرة. وعندئذ ستفقد المدينة طابعها الهادئ.

وبالفعل، كلّ يوم يزداد عدد نزلاء الفندق. وتُنظَّم مساء يوم السبت سهرة راقصة تستمرّ أحياناً حتّى الرّابعة فجراً. ولأنّني لا طاقة لي على احتمال الموسيقى والصراخ والضحك المدويّ الذي يطلقه السّاهرون، أفضّل البقاء في الشّارع، فأجلس على مقعد ما وفي يدي قنينة نبيذ أشتريها خلال النّهار، وأنتظر.

وذات مساء، يأتي صبيّ ويجلس بجانبي.

ـ هل أستطيع أن أبقى قريباً منك يا سيّد؟ الحقيقة أنّني أخافُ قليلاً أثناء اللّيل.

أتعرّفُ صوته. إنّه الصبيّ الذي حمل لي الحقيبة عند وصولي. فأسأله:

ـ ماذا تفعل هنا في مثل هذه السّاعة؟

يقول:

ـ أنتظر أمّي. عندما يُقيم الفندق سهرة راقصة، يُطلب منها أن تبقى هناك للمساعدة في الخدمة وغسل الأواني.

ـ حقّاً؟ ولماذا لا تلازم البيت وتخلد إلى النّوم مطمئناً؟

ـ لا أستطيع أن أنام مطمئناً. أخشى دائماً أن تتعرّض أمّي لسوء. نسكن في ناحية بعيدة، ولا أستطيع أن أدع أمّي تسير كلَّ هذه المسافة بمفردها في اللّيل. فهناك أشرار يعتدون على النّساء اللّواتي يسرن بمفردهنّ في اللّيل. لقد شاهدت مثل هذه الأمور في التلفزيون.

ـ والأولاد الصغار، ألا يُعتدى عليهم؟

ـ لا، ليس غالباً. النّساء فقط. خصوصاً إذا كنَّ جميلات، أمّا

أنا، فبإمكاني أن أدافع عن نفسي. بإمكاني أن أركض بسرعة كبيرة.

ننتظر. شيئاً فشيئاً يخفت الصخبُ في الداخل. امرأة تغادر الفندق، إنّها المرأة التي تحضر لي القهوة كلَّ صباح. يهرع الصبيّ لملاقاتها، يسيران معاً، يداً في يد.

عَدَدٌ آخر من عاملي الفندق يغادرون، ويبتعدون مُسرعين.

أصعدُ إلى غرفتي.

وفي صبيحة اليوم التالي أقصدُ صاحبة المكتبة:

ـ يستحيل أن أمكث في الفندق بَعْدَ الآن. فهناك عدد كبير من النزلاء، وما عدتُ أطيق الصَخب الذي يسبّبونه. أتعرفين مَنْ يستطيع أن يؤجّرني غرفة؟

تقول:

ـ تعالَ واسكن عندي، هنا، في الطبقة العليا.

ـ سوف أزعجك.

ـ لا، على الإطلاق. سأقيمُ مع ابنتي. إنّها تسكن على مقربة مِنْ هنا. وبذلك تكون لك حرّيَّة التصرّف بالطبقة كلّها. غرفتان ومطبخ وحمّام.

ـ مقابل كم؟

ـ كم تدفع في الفندق؟

أقول لها. تضحك:

ـ إنّها تسعيرة للسيّاح. لن أطلب منكَ أكثر من نصف هذا المبلغ. وسأقوم بأعمال التنظيف بنفسي بعد إقفال المكتبة كلَّ يوم. ففي مثل هذه السّاعة لا تكون موجوداً في المنزل، وهكذا لن أسبّب لك أيّ إزعاج. أتودّ أن تعاين الشقّة؟

twitter @baghdad_library

ـ لا؛ إنّني واثق من أنّها ملائمة. متى أستطيع أن انتقل إليها؟

ـ منذ صباح الغد إذا شئت. ليس عليَّ إلاّ أن أنقل ملابسي وحاجياتي الشخصيّة.

وفي اليوم التالي أوضّب حقيبتي وأسدّد حسابي في الفندق. وأقصد المكتبة قبل موعد الإقفال بقليل. فتناولني صاحبة المكتبة مفتاحاً:

ـ إنَّه مفتاح المدخل. بإمكانك أن تصل إلى الشقّة عبر المتجر مباشرةً، ولكن من الأفضل أن تستخدم المدخل الآخر، عبر الباب المطلّ على الشارع. سوف أرشدك إليه.

تقفل المتجر ونتسلّق سلَّماً ضيّقاً يفضي بنا إلى قُرصِ دَرَجٍ تنيرهُ نافذتان تُطلاّن على الحديقة. فتسارع صاحبة المكتبة إلى القول:

ـ إنَّ الباب الذي تراه إلى اليسار هو باب حجرة النّوم، وقبالته الحمّام. أمّا الباب الثاني فهو باب صالة الاستقبال وتستطيع عبره أيضاً أن تصل إلى حجرة النّوم. وفي مؤخِّر الرواق المطبخ وفيه ثلاّجة. لقد تركتُ فيه بعض الأطعمة.

أقول:

ـ لا أحتاجُ إلاّ القهوة والنبيذ. فمن عادتي أن أتناول وجباتي في الحانات.

تقول:

ـ وجبات الحانات ليست صحيّة. تجد القهوة فوق الرفّ، وهناك قنينة نبيذ في الثلاّجة. سأغادرك الآن، وأرجو أن تطيب لك الإقامة هنا.

تغادر. أفتح قنينة النّبيذ على الفور؛ وغداً سوف أحضر عدداً

منها. أدخل الصالة. إنّها حجرة فسيحة فيها أثاثٌ بسيط. بين نافذتين توجد طاولة كبيرة مغطاة بنسيج مخمليّ أحمر. فأضع عليها أوراقي وأقلامي. ثمَّ أدخلُ إلى حجرة النّوم. إنّها حجرة ضيّقة لها نافذة وحيدة، أو بالأحرى نافذة ـ باب تفضي إلى شرفةٍ صغيرة.

أضع حقيبتي فوق السرير، وأرتّبُ ثيابي في الخزانة الفارغة.

خلافاً لعادتي كلّ مساء، أمكثُ في الشقّة لا أغادرها؛ أحتسي قنينة النّبيذ حتّى الجرعة الأخيرة، جالساً على كنبةٍ عتيقة قبالة إحدى نافذتَي الصالة. أمكث هناك مستغرقاً في تأمُّلِ السّاحة، وبعد ذلك أخلد إلى النّوم في سريرٍ تفوح منه رائحة الصابون.

في صبيحة اليوم التّالي، عندما استيقظ نحو العاشرة، أجدُ صحيفتين على طاولة المطبخ وقِدْراً صغيرة فيها حساءِ خُضَر فوق الطبّاخ. أبدأ بصنع القهوة الّتي أشربها وأنا أقرأ الصحيفتين. أمّا الحساءُ فألتهمه فيما بعد، قبل أن أغادر الشقّة، نحو السّاعة الرّابعة من بعد الظهر.

صاحبة المكتبة لا تزعجني على الإطلاق. ولا أراها إلاّ حين أزورها في الطبقة السّفلى. خلال غيابي تنظّف الشقّة وتحمل معها غسيلي الّذي تعيده إليّ في اليوم التالي نظيفاً ومكويّاً.

الأيام تمضي بسرعة. لقد حان موعد تجديد إقامتي، ولهذا الغرض عليَّ أن أقصد المدينة المجاورة، وهي المركز الإداري للمقاطعة. إنّها امرأة شابّة، تلك الّتي تضع الختمَ على جواز سفري: «تجديد إقامة لمدّة شهر واحد»؛ أسدّد الرّسوم وأشكرها. تبتسم:

ـ سأكون هذا المساء في الفندق الكبير. نمضي هناك أروع ساعات

twitter @baghdad_library

اللهو. وهناك عدد كبير من الأجانب وقد تصادف من بينهم بعض مواطنيك.

أقول:

ـ حسناً، قد أذهب إليه أنا أيضاً.

وحالما أغادر المبنى أستقلّ القطار الأحمر مباشرةً عائداً إلى بيتي، إلى مدينتي.

في الشهر التالي، تبدو لي المرأة الشّابة أقلَّ تحبّباً، تضع الختم على جواز سفري، دون أن تنبسَ بكلمة، وفي المرّة الثالثة تنذرني بجفاء أنّ أيّ تجديد رابع للإقامة مستحيل.

قُبيل نهاية الصيف، لا يبقى لديّ الكثير من المال، فأقتصدُ ما استطعت. أشتري هرمونيكا وأتنقّل بين الحانات أعزفُ عليها الألحان الّتي كنتُ أعزفها في طفولتي. ومقابل عزفي يقدِّم لي الزّبائنُ الشّرابَ مجّاناً. أمّا الطعام، فكنتُ أكتفي منه بحساء الخُضَر الّذي تحضره لي صاحبة المكتبة. وعند حلولِ شهر أيلول (سبتمبر) ثمَّ تشرين الأوّل (أكتوبر) أصبحتُ عاجزاً عن تسديد إيجار الشقّة. ولم تعمد صاحبة المكتبة إلى المطالبة به، بل واصلت عنايتها المعتادة بتنظيف البيت، وغسل ثيابي وإحضار الحساء.

لا أعلم كيف سأتدبّر أموري، ولكنّي لا أريد أن أعود إلى البلد الآخر، يجب أن أمكث هنا، وأموت هنا، في هذه المدينة.

لم تعاودني الأوجاع منذ وصولي إلى هذه المدينة وذلك على الرّغم من إفراطي في الشّرابِ والتدخين.

في ٣٠ تشرين الأوّل (أكتوبر) أحتفلُ بعيد ميلادي في إحدى أكبر الحانات الشعبيّة في المدينة بصُحبة الشَربِ من الحاضرين. جميعهم يقدّمون لي الشّرابَ مجّاناً؛ ويرقصون على أنغام عزفي على الهرمونيكا. نساءٌ يُقَبّلنني. ويُتَعتعني السّكرُ. فأروح أروي حكاياتٍ عن شقيقي على جاري عادتي حين أفرطُ في تناولِ المُسكرات. كلّ سكّان المدينة يعرفون قصّتي: إنّني أبحث عن شقيقي الّذي عشتُ معه هنا، في هذه المدينة، حتّى سنّ الخامسة عشرة. وهنا ينبغي أن أعثر عليه، أنتظره، وأعلم جيّداً أنّه سيأتي إليَّ حالما يبلغه خبر عودتي من الغربة.

وكلُّ هذا ليس سوى كذبة. فأنا أعلمُ جيّداً، أنّني عشتُ وحيداً في هذه المدينة، في منزل الجدّة، وأنّني حينذاك إنّما كنتُ أتخيّلُ فقط أنّنا اثنان، شقيقي وأنا، لكي أقوى على احتمال العزلة الّتي لا تُحْتَمل.

تهدأ صالة الحانة قليلاً نحوَ منتصف اللّيل. أكفُّ عن العزف، وأواصلُ معاقرة الخمرِ فقط.

رجلٌ عجوز، رثّ الثّياب، يجلسُ قبالتي. يشربُ جرعاتٍ من كأسي. يقول لي:

ـ أذكركما جيّداً كليكما. أنتَ وشقيقك.

لا أقول شيئاً. رجلٌ آخر، أصغر سنّاً من الأوّل، يُحضر ليتراً من النّبيذ ويضعه على طاولتي. فأطلب كأساً نظيفة. ونشرب معاً.

twitter @baghdad_library

يسألني الرَّجُلُ الفتيّ:

ـ ماذا تعطيني لو عثرتُ على شقيقك؟

فأقول له:

ـ بتُّ لا أملكُ مالاً.

يضحك:

ـ ولكن بإمكانك أن تطلب تحويل المزيد من المال من الخارج. كلُّ الأجانب أثرياء.

ـ أمّا أنا فلستُ ثريّاً. حتّى إنّي لا أستطيع أن أقدِّم لك كأساً.

ـ لابأس. أعطنا ليتراً آخر، على حسابي.

تحضرُ النّادلة النّبيذ وتقول:

ـ إنّه الأخير. لن أقدِّم لكما شيئاً بعد الآن. يجب أن نقفل الحانة وإلاّ تعرّضنا لمتاعبَ مع الشرطة.

يواصل العجوز احتساء الخمرَ بجانبنا، قائلاً بين حينٍ وآخر:

ـ بلى، لقد عرفتكما جيّداً كليكما. لقد كنتما شقيّين حينذاك. بلى، بلى.

ويقول لي الرّجلُ الفتيّ:

ـ أعلمُ أنّ شقيقك يختبئ في الغابة. لقد كنتُ ألمحه أحياناً من بعيد. إنّه يحيا كحيوان برّي. لقد صنع لنفسه ثياباً من أغطيةٍ عسكريّة ويسير حافي القدمين حتّى في الشّتاء. يقتاتُ بالأعشاب والجذور والكستناء والحيوانات الصغيرة. شعرُه رماديّ طويل، ولحيته رماديّة أيضاً. يحمل سكّيناً وأعواد ثقاب، يدخّن سكائر يلفّها بنفسه، الأمر الّذي يؤكّد أنّه يتسلّل إلى المدينةِ أحياناً تحت جُنح اللّيل. ربَّما عرفته الفتيات اللّواتي يقمن خلف المدافن ويَعْتَشن من بيع أجسادهنّ.

وربّما كانت إحداهنَّ، على الأقلّ، تستقبله سرّاً وتوفّر له كلَّ ما يحتاجه. بإمكاننا أن ننظّم حملة تفتيش. وإذا شارك فيها الجميع فقد نفلح في العثور عليه ومحاصرته.

أنهضُ وأضربه:

ـ أيّها الكاذب! إنّه ليس شقيقي. وإذا أردت أن تحاصر أحداً ما فلا تنتظر منّي أن أمدَّ لك يَدَ العون.

أضربه مرّة ثانية، فيسقط عن كرسيّه. أقلبُ الطاولة أمامي، وأواصل صراخي:

ـ إنّه ليس شقيقي!

تهرع النّادلة إلى الشّارع صارخةً:

ـ الشرطة! الشرطة!

لابدَّ أنّ أحداً ما قد اتّصل بالشرطة هاتفياً، لأنّها وصلت على جناح السّرعة. وصل شرطيّان راجلان. يُخيّم الصمتُ على صالة الحانة. يسأل أحدهما:

ـ ما الّذي يجري هنا؟ المفروض أنّ هذا المحلّ ينبغي أن يكون مقفلاً منذ بعض الوقت.

يئنُّ الرَّجُلُ الّذي اعتديتُ عليه قائلاً:

ـ لقد ضربني.

ويُشيرُ إليَّ عدد من الأشخاص بأصابعهم:

ـ هو الجاني.

يُعينُ الشرطيُ الرّجلَ على النّهوض:

ـ كفَّ عن الشكوى. لم تُصَبْ بأذى. ولكنَّك سكران كالعادة.

twitter @baghdad_library

الأفضل أن تعود إلى دارِك. وأنتم جميعاً الأفضل أن تعودوا إلى دُوركم.

يلتفتُ نحوي:

ـ أمّا أنتَ فلا أعرفك. أعطني أوراقك.

أحاول الفرار ولكنَّ مَنْ يحيطون بي يُسارعون إلى الإمساك بي. يفتّش الشرطي جيوبي فيجد جواز سفري. يتفحّصه مطوّلاً، ويقول لزميله:

ـ لقد انتهت صلاحيّة تأشيرته منذ أشهر عديدة. ينبغي أن نعتقله.

أحاول أن أقاوم ولكنَّهما يقيّدان معصميَّ بالأصفاد ويخرجان بي إلى الشّارع. أترنّحُ مُتعثّراً، أكادُ لا أقوى على السّير، فيحملانني تقريباً حتّى مخفر الشّرطة، وهناك، ينزعان الأصفاد من معصميَّ ويمدّدان جسمي المخمور فوق سرير، ويغادران بعد أن يوصدا البابَ وراءهما.

في اليوم التّالي، يستجوبني ضابط الشّرطة. إنّه شابٌ ذو شعر أصهب، وتغطّي وجهه بُقَعٌ غزيرة من النَمَش.

يقول لي:

ـ إقامتك في بلدنا لم تَعُدْ قانونيّة. ولذلك عليكَ أن تغادر.

أقول:

ـ لا أملكُ ثمنَ تذكرة القطار. لا أملك مالاً على الإطلاق.

ـ سوف أبلّغ سفارة بلادك. وسوفَ يعملون على ترحيلك.

أقول:

ـ لا أريد أن أغادر هذا المكان. يجب أن أعثر على شقيقي.

يهزّ الضابطُ كتفيه:

ـ بإمكانك أن تعود حالما تشاء. وبإمكانك حتَّى أن تستقرّ هنا نهائيّاً، ولكن هناك قوانين ترعى مثل هذه الأمور وينبغي التقيُّد بها. وسوف يشرحها لك المسؤولون في سفارة بلادك. أمّا بشأن شقيقك فسأجري التحرّيات اللاّزمة للعثور عليه. ألديكَ مِنَ المعلومات ما قد يُساعد تحريّاتنا؟

ـ أجل، لديَّ مخطوطة كُتِبتْ بخطِّ يده. وتجدها على طاولةِ صالة الاستقبال في شقَّتي الّتي تقع في الطّبقة العلويّة من المكتبة.

ـ وكيف حصلت على هذه المخطوطة؟

ـ لقد وضعها شخصٌ ما باسمي لدى عاملة الاستقبال في الفندق.

فيقول:

ـ إنّه لأمر غريب. غريب جدّاً.

ذات صباح من أيام تشرين الثّاني (نوفمبر) استُدْعيتُ إلى مكتب الضابط. وطلب منّي أن أجلس وناولني المخطوطة:

ـ خُذْ. إنّي أعيدها إليك. فهذه ليست سوى حكاية من نسجِ الخيال، ولا صلة لشقيقك بما يدور فيها من أحداث.

لَزِمنا الصمت. النّافذة مُشرَّعةُ المصراعين. الطقسُ باردٌ ومطير. وفي آخر المطاف، يقول الضّابط:

ـ حتَّى أنتَ، لم نعثر في سجلاّت المدينة على أيّ شيءٍ بشأنك.

فأقول:

ـ بالطّبع. لأنَّ الجدَّة لم تلجأ إلى أيّ قَيْدٍ رسميّ. كما أنّي لم

twitter @baghdad_library

أذهب إلى المدرسة قطّ. ولكنّي أعلمُ جيّداً أنّني وُلدتُ في عاصمةِ المقاطعة.

ـ لقد تَلِفَتْ سجّلات العاصمة كلّياً بسبب القصف. سوفَ يأتون لاصطحابك عند الثانية بعد الظهر.

قال عبارته الأخيرة بشيءٍ من الاستعجال.

أخفي يديَّ تحت الطاولة لأنّهما ترتعشان.

ـ عند الثّانية؟ اليوم؟

ـ أجل، إنّي آسفٌ حقّاً. لقد جَرَت الأمور بسرعةٍ غير متوقّعة. ولكنّي أكرّر أنّ بإمكانك العودة متى شئت. وبإمكانك أن تعود لتستقرّ هنا نهائيّاً. عدد كبير من المهاجرين فعلوا ذلك. فبلادنا أصبحت اليوم في عداد بلدان العالم الحرّ. وقريباً جدّاً لن تعود في حاجة إلى تأشيرة دخول.

أقول له:

ـ حينذاك يكون قد فات الأوان بالنّسبة لي. إنّي مصاب بمرض القلب. وإذا كنتُ اخترتُ أن أعود فلكيّ أموت هاهنا. أمّا شقيقي فربّما لم يُوجَد على الإطلاق.

يقول الضابط:

ـ أجل، أعتقد أنّك محقّ في ما تقول. وإن تابَعْتَ تلك الحكايات عن شقيقك فقد يحسَبُ البعض أنّك مجنون.

ـ أهذا ما تحسبه أنت أيضاً؟

يهزّ رأسه:

ـ لا. ولكنّي أعتقد فقط أنّك تخلط ما بين الواقع والأدب. أدبك الخاص. وأعتقد أيضاً أنّه من الأفضل لك أن تعود إلى بلادك لتفكّر مليّاً ثمّ تعودُ للإقامة هنا نهائيّاً، ربّما. هذا ما أرجوه لكَ ولي.

ـ بسبب لعبة الشطرنج؟

ـ لا، ليس فقط بسبب الشطرنج.

ينهضُ ويمدّ لي يده:

ـ لن أكون هنا حين تغادر. لذلك أقولُ لكَ الآن: إلى اللّقاء. هيّا عُدْ إلى زنزانتك.

أعودُ إلى زنزانتي. فيقول لي حارسي:

ـ يبدو أنّك سترحل اليوم.

ـ أجل، يبدو لي ذلك.

أستلقي فوق سريري وأنتظر. عند الظهر تأتي صاحبة المكتبة حاملةً قِدْر الحساء. فأخبرها أنّني سأرحل. تبكي. وتسحب من حقيبتها سترة صوفٍ وتقول لي:

ـ لقد صنعت لك سترة الصوف هذه. الْبَسْها. الطقسُ بارد.

أرتدي سترة الصوف وأقول:

ـ شكراً لك. لك في ذمّتي إيجار شهرين. آمل أن تسدِّده لك سفارة بلادي.

تقول:

ـ لا تأبه لهذا الأمر! وبأيّة حال، سوف تعودُ إلى هنا، أليس كذلك؟

ـ سأحاول.

تغادر والدّموع تملأ عينيها. فقد حان موعد فتح المتجر.

نجلسُ، أنا وحارسي، في الزّنزانة. يقول لي:

ـ ينتابني شعورٌ غريب حين أفكِّر في أنّك لن تكون هنا غداً. لكنّك

twitter @baghdad_library

ستعود بالتأكيد. وبانتظار عودتك، سوف أمحو لائحة ديونك عن اللّوحِ.

أقول له:

ـ لا. أرجوك، لا تفعل. سأسدِّد ما لك في ذمّتي حالما يَصل موظفو السّفارة.

يقول:

ـ لا، لا، كنَّا نلْعَبُ لمجرَّد التسلية. ثمَّ إنّي غالباً ما كنت أغشّ في اللّعب.

ـ آه، ولهذا السّبب كنتَ تربح دائماً!

ـ لا تَحْقد عليَّ، ولكنّي لا أستطيع إلاَّ أن أغشّ في اللّعب.

ينخر ويتمخَّطُ في منديله.

ـ أَوَتدري، إن رُزِقتْ ولداً، فسأعطيه اسمَك.

أقول له:

ـ لا بل اسم شقيقي، لوكاس(*)؛ فإنّ ذلك ليُسعدني جدّاً.

يفكِّر قليلاً:

ـ لوكاس؟ بلى، إنّه اسم جميل. سأسأل زوجتي. ربَّما أعجبها الاسم. وبأيّة حال، ليس لها أن تقول شيئاً. فربُّ البيتِ هو الّذي يقرّر.

ـ من دون شكّ.

يأتي شرطي لاصطحابي من الزنزانة. نسيرُ جنباً إلى جنب، أنا وحارسي. فأرى رجلاً أنيق المظهر، بربطة عنقٍ وقبّعة ومظلَّة، في انتظاري. بلاطُ أرضيّة الفِناء يلمع تحت المطر.

(*) Lucas

يقولُ موفدُ السّفارة:

ـ هناك سيّارة تنتظرنا. لقد سدَّدتُ كلَّ ديونك.

إنّه يتكلَّم لغةً يُفترضُ بي أن لا أعرفها، ومع ذلك أفهمها. أشيرُ إلى حارسي:

ـ أدين لهذا الرّجل بمبلغٍ من المال. إنّها ديون مستحقّة.

يسأل:

ـ كم؟

يدفع، ويُمسكُ ذراعي ويقودني إلى سيّارة سوداء كبيرة أمام الدّارة. يترجَّلُ سائق يعتمرُ الكاسكيت ويفتح لنا الباب.

تنطلق السيّارة. أسألُ موفَدَ السّفارة إذا كان يأذن لي بالتوقّف هنيهة أمام المكتبة، في ساحة برنسيبال، لكنَّه يرمقني بنَظَرات استفهامٍ كأنَّه لم يفهم ما أقول، فأدركُ أنّني خاطبته بلغتي القديمة، لغة هذه البلاد.

السّائقُ يقود السيّارة بسرعةٍ كبيرة، فها نحن نجتاز السّاحة، ونتقدَّمُ في شارعِ المحطّة، ولن تلبث مدينتي الصغيرة أن تصبح وراءنا.

أشعر بالحرِّ داخل السيّارة. ومن خلال النّافذة أرى القرى متتاليةً في مشاهدَ عابرة، والحقولَ وشَجَرَ الحور والأكاسيا، مَنْظَرَ بلادي الّتي ينهمرُ عليها المطرُ وتعصِفُ بها الرّياح.

فجأةً، أستديرُ وأخاطِبُ موفدَ السّفارة قائلاً:

ـ إنّها ليست طريق الحدود. إنّنا نسير في الاتجاه المعاكس.

يقول:

twitter @baghdad_library

ـ سننتقل بك إلى السّفارة أولاً، في العاصمة. وستعبر الحدود في غضون أيّام قليلة، بالقطار.

أغمضُ عينيَّ.

الوَلَدُ يعبر الحدود.

الرَّجُلُ يتقدَّم الولدَ. الولدُ ينتظر. انفجار. يقترب الولد. الرَّجلُ جثّة هامدة بقربِ الحاجز الثّاني. عندئذٍ ينطلق الولَدُ مسرعاً. يتتبَّع آثار الخطى، ثمَّ يقفز فوق الجثّة الهامدة فيصل إلى الجهة الأخرى، ويختبئ خَلْفَ دغلٍ من الأشواك.

تَصِلُ إلى مكان الانفجار مفرزة من حَرَسِ الحدود على متن سيّارة جيب. رقيبٌ وعدد من الجنود. يقول أحدهم:

ـ يا للمغفَّل المسكين!

ويقولُ آخر:

ـ إنّها غلطة من يخونه الحظّ. لقد كاد يصل.

يصرخ الرّقيب:

ـ كُفُّوا عن المزاح. يجب أن نعودَ بالجثّة.

فيقول الجنود:

ـ ما تبقَّى منها.

ـ وما جدوى أن نعود بها؟

ـ يقول الرّقيب:

ـ للتعرُّفِ إلى هويّةِ القتيل. إنّها الأوامر. يجب أن نعود بالجثث. هل من متطوّعين؟

ينظر الجنودُ بعضهم إلى بعض.

ـ والألغام. قد تقتلنا الألغام.

twitter @baghdad_library

ـ وماذا لو قتلتكم؟ إنّه واجبكم. يا زمرةِ الجبناء!

يرفع أحد الجنود يَدَه:

ـ أنا.

ـ أحْسَنْتَ. هيّا يا بني. أمّا أنتم فتراجعوا.

يتقدَّم الجندي بحذرٍ نحو الجُثَّة الممزَّقة، ثمَّ يهرعُ راكضاً، يمرُّ بمكمن الولدِ دون أن يراه.

يصرخ الرّقيب:

ـ الوغد! أطلقوا النّار!

لا يطلق الجنود النّار.

ـ لقد أصبح في الجهة الأخرى. ولا نستطيع أن نطلق النّار على الجهة الأخرى.

يسدِّدُ الرقيبُ بندقيّته. يرى جنديّين من حَرَسِ الحدود في الجهة المقابلة. فيخفض سلاحه ويُعطيه لأحد الجنود. يمشي نحو الجثَّة، يحملها على ظهره ويعود أدراجه ثمَّ يرمي بها أرضاً. يمسحُ وجهه بكميّ بزّته:

ـ سوف أنال منكم يا أولاد القحاب. لستم سوى كومة خراء.

يلفُّ الجنود الجثَّة بغطاءٍ عسكريّ ويضعونها في مؤخِّر السيّارة. ويغادرون. وفي هذه الأثناء يُغادر حارسا الحدود موقعهما في الجهة المقابلة.

يمكثُ الولدُ منبطحاً لا يُحرِّكُ ساكناً، ويغفو. وعند الصباح الباكر توقظه العصافير فيضمُّ إلى صدره بقوّة معطفه وحذاءه المطّاطيّ، ويحثُّ الخطى باتّجاه البلدة. يُصادفُ اثنين من حرس الحدود، يسألانه:

ـ وأنت؟ مِنْ أين أتيت؟

ـ من الجهة المقابلة من الحدود.

ـ عبرتَ الحدود؟ متى؟

ـ أمسِ. برفقة والدي. لكنَّه مات. قضى في انفجار لغم، وعاد حَرَسُ الحدود في الجهة المقابلة بجثّته.

ـ أجل. لقد شهدنا الحادثة. ولكنّنا لم نَرَكْ. والجندي الّذي مرَّ وعبر الحدود لم يَرَك أيضاً.

ـ لقد اختبأت. كنتُ خائفاً.

ـ وكيف استطعت أن تتعلّم لغتنا؟

ـ لقد تعلَّمتها من الجنود خلال الحرب. أتعتقدان أنَّهم سيعالجون إصابة أبي؟

يُطرق الحارسان:

ـ بالتأكيد. تعال معنا. لابدَّ أنَّك جائع.

يصحب حارسا الحدود الولدَ إلى البلدة، ويتركانه في رعايةِ زوجةِ أحدهما.

ـ أحضري له طعاماً، ثمَّ اصطحبيه إلى مخفر الشرطة. وأخبريهم أنَّنا سنمرّ بالمخفر عند الحادية عشرة لنقدِّم تقريرنا.

المرأة بدينة وشقراء، وجْهُها ورديٌّ بشوش.

تسأل الولد:

ـ أتحبّ الحليبَ والجبن؟ فالطعامُ لم ينضج بَعْدُ.

ـ أجل، يا سيّدتي، أحبُّ كلَّ شيء. وبإمكاني أن آكل أيَّ شيء.

تحضر له المرأة حليباً وجبناً:

ـ لا، مهلاً. اذهب واغتسل أولاً. أو على الأقل، اغسل وجْهَكَ

twitter @baghdad_library

ويديك. كنتُ أودُّ أن أغسلَ ثيابك، ولكن أحسبُ أنَّك لا تملك سوى ما ترتديه.

ـ أجل، يا سيّدتي.

ـ سأعطيك قميصاً من قمصان زوجي، ستجده كبيراً عليك ولكن لابأس. ما عليك إلاّ أن تثني كمّيه. خُذْ هذه الفوطة. الحمّامُ من هناك.

يحمل الولدُ معطفه وحذاءه إلى الحمّام. يغتسل ويعود إلى المطبخ فيأكل خبزاً وجبناً ويشربُ حليباً. يقول:

ـ شكراً يا سيّدتي.

تقول:

ـ إنَّك ولدٌ مهذَّبٌ حَسَنُ التربية. وتتكلَّم لغتنا بطلاقة. هل بقيت والدتك هناك؟

ـ لا. لقد ماتت خلال الحرب.

ـ يا لكَ من ولدٍ مسكين. تعال، ينبغي أن نذهب إلى مخفر الشرطة. لا تخف. الشرطي المناوب لطيفٌ جدّاً. إنّه صديق زوجي.

وفي المخفر تقول للشرطي:

ـ هوذا ابن الرّجل الّذي حاول عبور الحدود أمس. وسيمرّ بك زوجي عند الحادية عشرة. ويكون من دواعي سروري إن أذنتم لي بالاحتفاظ بهذا الصبيّ إلى أن يصدر القرار بشأنه. ربّما كان من الواجب إعادته، إنّه قاصر.

يقول الشرطي:

ـ سوف نرى. على كلّ حال سأعيده إليك لتناول طعام الغداء.

تغادر المرأة، فيعطي الشرطيُّ الولدَ استمارة استجواب ويقول له:

ـ املأ هذه الاستمارة. وإذا وجدت فيها ما لا تفهمه فاسألني.

وعندما يُعيد الولدُ الاستمارة إلى الشرطي، يبدأ هذا الأخير بقراءتها بصوتٍ عالٍ:

ـ الاسم والشهرة: كلاوس ت. السنّ: ثمانية عشر عاماً. لا تبدو لي طويلاً كثيراً بالنّظر إلى سنِّك.

ـ إنَّما ذلك بسبب مرض ألمّ بي في طفولتي.

ـ أتحملُ بطاقة هويّة؟

ـ لا، لا شيءَ من هذا القَبيل، لقد أحرقنا، أنا ووالدي، كلَّ أوراقنا قبل أن نغادر.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري. بسبب إجراءات التحقُّق من الهويّة. لقد قال والدي إنّه ينبغي أن نتلفها.

ـ لقد قضى والدك في انفجار لغم. ولو كنت تسير بجانبه لقضيت أنت أيضاً.

ـ لم أكن بجانبه. طلب منّي أن أنتظر ريثما يعبر إلى الجهة المقابلة، وأن أتبعه مِنْ بعيد.

ـ لماذا عبرتما الحدود؟

ـ هذا ما أراده والدي. لقد كان هناك يتعرَّض دائماً للسجن والمراقبة المشدَّدة. لذلك صمَّم على الفرار. واصطحبني لأنّه لم يشأ أن يتركني وحيداً هناك.

ـ وأمُّك؟

ـ قتلت في الحرب من جرّاء القصف. وبعد وفاتها عشتُ مع جدّتي ولكنّها توفيت هي أيضاً.

ـ إذاً، لم يعد لديك أقرباء هناك. لا أحدَ من شأنه أن يطالب

twitter @baghdad_library

باسترادادك، باستثناء السلطات، إذا كنتَ من أصحاب السّوابق.

ـ لستُ من أصحاب السّوابق.

ـ حسناً إذاً، لم يبق أمامنا إلاّ انتظار القرار الّذي سيتّخذه رؤسائي بشأنك. وفي غضون ذلك يُحظَّر عليك مغادرة البلدة. خُذْ. وقِّع على هذه الاستمارة، هنا.

يوقِّع الوَلَدُ على المحضر الّذي يتضمّنُ ثلاث أكاذيب:

فالرجل الّذي عبر الحدود برفقته ليس والده.

ليس الولد في الثّامنة عشرة، بل في الخامسة عشرة.

ـ إنّه لا يُدعى كلاوس.

بعد بضعة أسابيع وصل رَجُلٌ من المدينة إلى منزل حارس الحدود. قال للولد:

ـ أُدعى بيتر ن. وسأعنى بك من الآن فصاعداً. خُذْ، هذه بطاقة هويّتك لا ينقصها إلاّ توقيعك.

يحدِّقُ الولدُ في البطاقة. تاريخ ميلاده أُرْجِعَ ثلاثة أعوام إلى الوراء، ويُدعى كلاوس، أمّا جنسيّته فـ «بلا جنسيّة».

وفي اليوم ذاته، يستقلّ بيتر وكلاوس الباص قاصِدَين المدينة. وخلال الرّحلة، يطرح عليه بيتر بعض الأسئلة:

ـ ماذا كنت تفعل يا كلاوس، قبل عبورك الحدود؟ أكنتَ طالباً؟

ـ طالب؟ لا. كنت أزرعُ حديقتي وأعتني بماشيتي ودجاجاتي، وأعزف على الهرمونيكا في الحانات وأحمل حقائب المسافرين.

ـ وما هي مشاريعك للمستقبل؟
ـ لا أدري، لا شيء. لماذا ينبغي على المرء قَطْعاً أن يفعل شيئاً؟
ـ يجب أن تجني مالاً لكي تعيش.
ـ هذا ما أجيده. وطالما سعيت لكسبِ بعض المال. وكم أودّ أن أزاول أيّ عملٍ لأكسب القليل من المال.
ـ القليل من المال؟ وأيّ عمل؟ بإمكانك أن تحصل على منحة دراسيّة.
ـ لا أرغب في الدّراسة.
ـ ومع ذلك يجب أن تدرس قليلاً لتتقن اللّغة جيّداً. أنت تتقن التحدّث بها، ولكن يجب أن تتقن أيضاً الكتابة والقراءة. سوف تقيم في أحد بيوت الشّباب برفقةِ طلاّب آخرين. ستكون لك غرفة خاصّة، وستتابع دروساً في اللّغة وبعد ذلك سوف نرى.

يمضي بيتر وكلاوس ليلتهما في فندقٍ في إحدى المدن الكبيرة. وعند الصباح يستقلاّن القطار إلى مدينة أصغر تقع بين بحيرةٍ وغابة. أمّا بيت الشّباب فيقع في شارع شديد الانحدار، وسط حديقة بالقُرْبَ من قلب المدينة.

يستقبلهما زوجان هما مدير البيت ومديرته، ويقودان كلاوس إلى غرفته. النّافذة تطلُّ على الحديقة.

ويسأل كلاوس:
ـ مَنْ الّذي يُعنى بالحديقة؟
تقول المديرة:
ـ أنا. ولكنَّ الأولاد لا يبخلون بالمساعدة.
يقول كلاوس:

twitter @baghdad_library

ـ وأنا أيضاً أودّ أن أساعدك.

تقول المديرة:

ـ شكراً لك يا كلاوس. هنا، ستكون لكَ الحرّيّة المطلقة، على أن تعود إلى غرفتك قبل الحادية عشرة ليلاً. وسوف تقوم بتنظيف غرفتك بنفسك. وبإمكانك أن تطلب المكنسة الكهربائيّة من حارسة المبنى.

يقول له المدير:

ـ إذا واجهتك أيّة مشكلة فاطلب مواجهتي على الفور.

يقول بيتر:

ـ ستكون على أحسن ما يُرام هنا، أليس كذلك يا كلاوس؟

ثمَّ يُطلِعان كلاوس على غرفة الطّعام، والأمكنة المخصّصة للاستحمام بالدوش وصالة الجلوس المشتركة. ويعرّفونه على الفتيات والفتيان الموجودين فيها.

وفيما بعد أَزارَ بيترُ كلاوسَ المدينةَ ثمَّ اصطحبه إلى منزله.

ـ بإمكانك أن تأتي لزيارتي هنا إذا احتجت لأيّ شيء. هذه زوجتي كلارا.

وعند الظهر تناولوا طعام الغداءِ معاً؛ وخلال ساعات ما بعد الظهر طافوا بالمحالّ الكبرى لابتياع بعض الملابس والأحذية.

قال كلاوس:

ـ لم أحظَ في حياتي كلّها بمثلِ هذه الملابس.

ويبتسم بيتر قائلاً:

ـ بإمكانك الآن أن ترمي معطفك القديم وحذاءك المطّاطيّ. وسوف تُمنَحُ مَبْلغاً من المالِ في نهاية كلِّ شهر كمصروف جيب

ولتسديد بعض احتياجاتك المدرسيّة. وإن احتجت لأيّ شيء إضافي فأخبرني وسوف تُدفع بالطبع نفقات إقامتك ودروسك.

يسأل كلاوس:

ـ مَنْ يهبني كلَّ هذا المال؟ أنت؟

ـ لا. فأنا لستُ في الحقيقة سوى وليّ أمرك. أمّا المال فمصدرُه الدّولة. لا أهل لك، ولذلك يتوجّب على الدّولة أن تتولّى أمرك إلى أن يصبح بإمكانك تدبّر أمر معيشتك بنفسك.

يقول كلاوس:

ـ آمل أن يتمَّ لي ذلك في أقرب وقت.

ـ في غضون هذا العام، سيكون عليك أن تقرِّر ما إذا كنت ترغب في الدّراسة أو تفضّل أن تتلقّى تدريباً مهنيّاً ما.

ـ لا أرغبُ في الدّراسة.

ـ سوف نرى، سوف نرى. أليس لديك إذاً أيّ طموح يا كلاوس؟

ـ طموح؟ لا أدري. أريد فقط أن أحيا بسلام ليتسنّى لي أن أكتب.

ـ أن تكتب؟ ماذا؟ أوَترغب في أن تصبح كاتباً؟

ـ أجل. ليس من الضروري أن يتابع المرء الدّراسة ليصبح كاتباً. يكفي أن يجيد الكتابة دون أخطاء كثيرة. أودُّ فعلاً أن أتعلّم الكتابة الصحيحة بلغتكم، وأعتقد أنَّ هذا يكفيني.

يقول بيتر:

ـ ولكنَّ المرء لا يستطيع العيش من الكتابة.

يقول كلاوس:

ـ لا، أعلم ذلك. ولكن بإمكاني أن أعمل خلال النّهار، ثمَّ أنصرفُ إلى الكتابة ليلاً. هذا ما كنتُ أفعله خلال إقامتي مع الجَدَّة.

twitter @baghdad_library

ـ ماذا تقول؟ أتقصد أنّك مارست الكتابة مِنْ قبل؟

ـ أجل. لقد سوَّدتُ عدداً من الدّفاتر. وهي ملفوفة في معطفي القديم. وحالما أتقن لغتكم أترجمها وأطلعك عليها.

ها هما الآن في الغرفة ببيت الشّباب. يفكّ كلاوس الخيط الّذي يربط به معطفه القديم. ولا يلبث أن يُلقي بخمسة دفاتر مدرسيّة على الطاولة. يتصفّحها بيتر، دفتراً تلو الآخر:

ـ إنّي أتحرّق شوقاً بالفعل لأن أعرفَ محتوى هذه الدّفاتر. أهي كتابة أشبه باليوميّات؟

يقول كلاوس:

ـ لا، إنّها أكاذيب.

ـ أكاذيب؟

ـ أجل. أشياء مُخْتلقة. قصص غير صحيحة ولكنّها يمكن أن تكون كذلك.

يقول بيتر:

ـ أسرع إذاً بتعلُّم الكتابة بلغتنا، يا كلاوس.

نصل إلى العاصمة في نحو السّابعة مساءً. لقد ساء الجوّ واشتدّت البرودة واستحال المطرُ حبيباتٍ بلّوريّة باردة.

يقع مبنى السّفارة وسط حديقة فسيحة. يقودني أحدهم إلى غرفة حسنة التدفئة فيها سرير مزدوج وحمّام، أشبه بغرفةٍ في أحد الفنادق الفخمة.

يحضر لي نادلٌ وجبةَ طعام. لا آكل منها إلاّ القليل. إذ لا يشبه هذا الطّعام تلكَ الوجبات الّتي اعتدتها مجدّداً خلال إقامتي في المدينة الصغيرة. أضعُ الصينيّة أمام الباب؛ وعلى بُعدِ أمتار من هناك رجل جالس في الدّهليز.

أغتسل وأغسلُ أسناني بفرشاة جديدة عثرت عليها في الحمّام. وقد وجدت فيه أيضاً مبذل استحمام، وعلى السرير بيجاما. وأخلدت إلى النّوم.

تعاودني الأوجاع. أتريَّث لبعض الوقت، ولكنَّ الأوجاع تتعاظم فلا أطيقُ صبراً عليها. أنهض وأفتّش في حقيبتي، فأعثر على الدّواء وأبتلع قرصين منه قبل أن أعود إلى السرير. تشتدّ عليّ الأوجاع بدل أن تسكن. أجرُّ نفسي إلى الباب فأفتحه وأجد الرّجل لايزال جالساً هناك. أقول له:

ـ استدعِ طبيباً، لو سمحت. إنّي مريضٌ جدّاً. قلبي.

فيرفع سمّاعة هاتف مثبتٍ بالجدار على مقربةٍ منه. وبعد ذلك، لا أذكر شيئاً؛ لقد أغميَ عليَّ. وأستيقظ فأجدني طريح الفراشِ في المستشفى.

أمكث في المستشفى ثلاثة أيّام تجرى لي خلالها كافّة أنواع الفحوصات. وفي آخر المطاف يصل الطبيب الأخصائي في أمراض القلب ويقول لي:

ـ بإمكانك أن تغادر السرير وترتدي ثيابك. سنعيدك إلى السّفارة.

أسأله:

ـ ألن أخضع لجراحة؟

ـ الجراحة ليست ضروريّة. قَلْبُك على أحسن ما يرام. أمّا

twitter @baghdad_library

أوجاعك فسببها القلق والحصر، وأعراض انهيار عصبي حادّ. كُفَّ عن تناول الترينترين. علاجك الوحيد هو هذه الأقراص المهدّئة القويّة الّتي وصفتها لك.

يمدّ يده لمصافحتي:

ـ لا تخف. في وسعك أن تحيا لسنواتٍ طويلة بَعْدُ.

ـ لا أريد أن أحيا طويلاً.

ـ ما إن تتعافى من انهيارك العصبي حتّى تبدّل رأيك بهذا الشأن.

تقلّني سيّارة إلى مبنى السّفارة. ويرشدني أحدهم إلى أحد المكاتب فأدخل ويطالعني شابٌ مبتسمٌ ذو شعر جَعْد يُشير عليَّ بالجلوس على كنبةٍ من الجلد.

ـ اجلس. لقد سرَّني كثيراً أن تكون في صحّةٍ جيّدة كما تشير تحاليل المستشفى. ولكنّي لم أَسْتَدْعِك لهذا الغرض. لقد بلغني أنّك تبحث عن أفراد عائلتك، وعن شقيقك خصوصاً، أليس كذلك؟

ـ أجل. شقيقي التوأم. ولكنَّ الأمل بالعثور عليه ليسَ كبيراً. أتوصَّلت إلى شيءٍ ما بهذا الخصوص؟ لقد قيل لي إنّ السجلّات قد تَلِفَتْ.

ـ لم أكن في حاجة للسجلّات. لقد بحثتُ عنه في دليل الهاتف. ثمّة رجل في هذه المدينة يحملُ اسمك بالذات. الشهرة نفسها والاسم نفسه.

ـ كلاوس؟

ـ أجل كلاوس(*) ت. بحرف الـ .K. وبديهي أنّه من غير الممكن أن يكون شقيقك. ومع ذلك قد يكون أحد الأقرباء، وبالتالي، فلابدَّ

(*) Klaus.

أن يزوّدنا ببعض المعلومات. هذا عنوانه ورقم هاتفه إذا أردتَ أن تتصل به.

آخذ العنوان، وأقول له:

ـ لا أدري. أفضّل أن أرى أوّلاً الشّارع والبيت الّذي يقيم فيه.

ـ أدركُ ما تودّ قوله. بإمكاننا أن نقوم بنزهة في الجوار عند الخامسة مساءً. سأرافقك، لأنّك لا تستطيع أن تغادر مبنى السّفارة بمفردك دون أوراق ثبوتيّة صالحة.

نعبر المدينة. يكاد الوقت أن يكون ليلاً. داخل السيّارة يقول لي الرّجلُ ذو الشّعر الجَعْد:

ـ لقد استعلمت بشأن سَمِّيكَ، واتضح لي أنّه أحد شعراء هذه البلاد الأكثر شهرة.

فأقول:

ـ لم تذكر صاحبة المكتبة الّتي أسكنتني في شقّتها أيَّ شيءٍ عنه. والمفترض أنّها عليمة في هذا المجال.

ـ ليس بالضرورة، لأنَّ كلاوس ت. ينشر أعماله تحت اسم مستعار. اسمه ككاتب كلاوس لوكاس. ويُعرَفُ عنه أنّه كارهٌ للبشر. لم يلمحه أحدٌ في اللّقاءات العامّة، كما نجهل كلَّ شيءٍ عن حياته الخاصّة.

تتوقّف السيّارة في شارع ضيّق بين صفّين من المنازلِ ذات الطّبقة الواحدة والمحاطة بالحدائق.

يقول الرّجل الجَعْد الشّعر:

ـ هاك. إنّه الرّقم ١٨. هنا. إنّه أحد أجمل أحياء المدينة. أكثرها هدوءاً، وأكثرها كلفةً أيضاً.

twitter @baghdad_library

ألزم الصمت. وأستغرق في تأمّل البيت. يبدو لي منفرداً في تراجعه قليلاً عن صفّ البيوت الأخرى. وهناك بضع درجات تفضي من الحديقة إلى المدخل. أمّا النّوافذ الأربع المطلّة على الشّارع فقد ظلّت مصاريعها الخشبيّة الخضراء مشرّعةً. ألمح ضوءاً ينيرُ المطبخ، ولا تلبث نافذتا الصالة أن تضاءا بنورٍ أزرق خافت. وتظلُّ حجرة المكتبة مظلمة. أمّا القسم الآخر من المنزل، المطلّ على الناحية الخلفيّة والفناء فلا يمكن أن أراها من حيث أنظر. ويتألّف هذا القسم أيضاً من ثلاث حجرات. غرفة نوم للوالدين، وغرفة الأولاد وغرفة الضيوف الّتي تستخدمها الوالدة أحياناً كمشغل للخياطة.

في الفناء سقيفة يحفظ تحتها الحطبُ وتركن الدرّاجات والألعاب الأخرى الفائضة. أذكر الدرّاجتين الحمراوين ذَوَاتَي العجلات الثّلاث ودُرَيِّجات الخشبِ. وأذكر أيضاً الدّواليب الّتي كنّا نكرّجها بواسطة عصا حتّى آخر الشّارع. طائرة ورقيّة ضخمة أُسندت إلى أحد الجدران. وفي الفناء، كان هناك أيضاً أرجوحة بمقعدين متجاورين. كانت أمُّنا ترجّحنا فيهما فنطير حتَّى أغصان شجرة اللّوز الّتي ربَّما مازالت هناك، خلف المنزل.

يسألني موظّف السّفارة:

ـ أيذكّرك كلُّ هذا بشيء؟

أقول:

ـ لا، لا شيء. كنتُ، آنذاك، في الرّابعة من عمري.

ـ أتريد أن تدخل الآن؟

ـ لا. أفضّل أن أتصل هاتفيّاً هذا المساء.

ـ أجل، هذا أفضل. إنّه رَجُل لا يستقبل النّاس بسهولة. وقد تجد أنّه يستحيل عليك أن تراه.

نعودُ إلى مبنى السّفارة. أصعد إلى غرفتي وأضع رقم الهاتف المدوّن على قصّاصة ورق قرب الهاتف. أبتلع قرصاً مهدّئاً وأفتح النّافذة. الثّلجُ يتساقط ويحدث نديفه حفيفاً مبلّلاً إذ يتراكم فوق عشب الحديقة اليابس، وعلى الأرض السّوداء. أستلقي على السرير.

أسيرُ في شوارع مدينة مجهولة. الثّلجُ يتساقطُ والظّلام يبدِّلُ حلكته بحلكة أشدّ. الشّوارع الّتي أسلكها تزداد عتمة. بيتنا القديم يقع في الشّارعِ الأخير. أبعد فأبعد، كأنّه وسط الأرياف. إنّها ليلة ظلماء. ثمّة حَانة قبالة البيت. أدخلها وأطلب قنينة نبيذ. الحانة خالية من روّادها. لا أحد سواي.

تُضاءُ نوافذ البيت كلّها دفعة واحدة. ألمحُ أخيلةً تتحرَّك من خلال السّتائر. أنهي قنينة النّبيذ، وأغادر الحانة؛ أجتاز الشّارع وأقرع جرس باب الحديقة. لا أحد يجيب. الجرس معطّل. أفتح بوّابة الحديد المطرَّق، إنّها غير موصدة. أصعد الدّرجات الخمس الّتي تفضي إلى باب الڤيرندا. وأقرع مجدَّداً، مرّتين، ثلاثاً. صوت رَجُلٍ يسأل من خلف الباب:

ـ مَن الطّارق؟ وماذا تريد؟ ومن أنت؟

أقول:

ـ هذا أنا، كلاوس.

ـ كلاوس، أيّ كلاوس؟

twitter @baghdad_library

ـ ابنك، ألا يُدعى كلاوس؟

ـ ابني كلاوس موجود هنا، في البيت. معنا. هيّا، ارحل.

يبتعد الرّجلُ عن الباب. أعاود قرع الباب، أطرقه بقبضتي، أصرخ:

ـ أبي، أبي، دعني أدخل. لقد أخطأت. أنا أدعى لوكاس. أنا ابنك، لوكاس.

صوت امرأة تقول:

ـ دعه يدخل.

يُفتح الباب. رجل عجوز يقول لي:

ـ هيّا، ادخل.

يتقدّمني إلى الصالة ويجلس على كنبة. امرأة مسنّة جدّاً تجلس قبالته.

تقول لي:

ـ إذاً، أنتَ تزعم أنّك ابننا لوكاس؟ أين كُنْتَ إلى الآن؟

ـ كنتُ خارج البلاد.

يقول أبي:

ـ بالضبط. كنت خارج البلاد. وما الّذي أتى بكَ الآن؟

ـ جئتُ لأراكما كليكما، يا أبي. ولأرى كلاوس أيضاً.

تقول أمّي:

ـ كلاوس لم يرحل؛ هو على الأقلّ، لم يرحل.

يقول أبي:

ـ لقد بحثنا عنك طَوال أعوام.

وتتابع أمّي:

ـ ثمَّ نسيناك. ما كان ينبغي أن تعود. إنَّك تزعجنا جميعنا. إنّنا نحيا حياةً هادئة مستقرّة، ولا نريد أن يتسبّب لنا أحدٌ بأيّ إزعاج.

أسأل:

ـ أين كلاوس؟ أريد أن أراه.

تقول أمّي:

ـ إنّه في غرفته، كالعادة، ينام. ينبغي ألاَّ يوقظه أحد. إنّه طفل في الرّابعة من عمره، ويحتاج لساعاتٍ طويلة من النّوم.

يقول أبي:

ـ لا شيء يؤكّد لنا أنَّك لوكاس. هيّا، ارحل.

لم أعد أسمعهما، أغادر الصالة وأفتح باب غرفة الأولاد وأضيءُ النوّاصة. أراه جالساً فوق سريره، طفلاً صغيراً يحدِّق فيّ وينتحب. يهرعُ والداي. تحمل أمّي الطفل بين ذراعيها، وتهدهده.

ـ لا تخف يا صغيري.

يمسك أبي بذراعي ويدفعني عبر الصالة وصولاً إلى الڤيرندا، ثمَّ يفتح الباب ويدفعني إلى الخارج. لقد أيقظته، أيُّها المخبول. هيّا، اغرب عن وجهي!

أسقُطُ أرضاً، يرتطم رأسي بحافةِ إحدى الدّرجات، وأنزفُ وأمكثُ ممدّداً فوق الثّلج.

يوقظني البرد. الهواءُ والثّلجُ يدلفان إلى غرفتي وأرى الأرضيّة مبلَّلةً تحت النّافذة.

twitter @baghdad_library

أغلق النّافذة وأحضر فوطةً من الحمّام أمسح بها نُقع المياه. أرتعد برداً وتصطكُّ أسناني. في الحمّام أشعر بالدّفء، أجلسُ على حافة المغطس، أبتلعُ قرصاً مهدّئاً آخر، وأنتظر ريثما تزول الرّعشة.

إنّها السّابعة مساءً. يحضر لي النّادل وجبة طعام فأسأله إذا كنتُ أستطيع أن أحصل على قنينة نبيذ.

يقول لي:

ـ سوف أرى.

يحضر قنينة النّبيذ بعد دقائق.

أقول:

ـ بإمكانك أن تأخذ صينية الطّعام.

أشربُ نبيذاً. أذرع أرض الغرفة جيئةً وذهاباً. من النّافذة إلى الباب، من الباب إلى النّافذة.

في السّاعة الثّامنة أجلس على حافة السّرير، وأدير قرص الهاتف. رقم شقيقي.

القسم الثاني

إنّها الثّامنة مساءً، يرنَّ جرس الهاتف. الوالدة أخلدت إلى النّوم منذ بعض الوقت. أمّا أنا، فأشاهد على التلفزيون فيلماً بوليسيّاً، على جاري عادتي كلَّ مساء.

أبصق قطعة البسكويت الّتي كنتُ أمضغها في منديل ورق. سآكلها فيما بعد.

أرفع سمّاعة الهاتف. ولا أعرِّف عن نفسي، بل أكتفي بالقول:

ـ آلو، مَنْ؟

صوت رجل يقول:

ـ أنا لوكاس ت. أودّ أن أكلِّم شقيقي كلاوس ت.

أصمتُ. يسيلُ العرقُ من أعلى ظهري إلى أسفله. وفي آخر الأمر، أقول:

ـ ثمّة خطأ ما. ليس لي شقيق.

يقول الصوت:

ـ بلى. شقيق توأم. لوكاس.

ـ لقد مات شقيقي منذ زمنٍ بعيد.

ـ لا. لم أَمُت. مازلتُ حيّاً يا كلاوس، وأشتاقُ لرؤيتك.

ـ أين أنت؟ ومن أين أتيت؟

ـ لقد أقمتُ طويلاً في الخارج. أمّا الآن فأنا هنا، في العاصمة، في سفارة د.

twitter @baghdad_library

أنشقُ نفساً عميقاً وأقولُ دفعة واحدة:

ـ لا أصدّقُ أنّكَ شقيقي. ثمَّ إنّي لا أستقبل أحداً ولا أريد أن يزعجني أحد.

يُلحّ:

ـ خمس دقائق، يا كلاوس. لا أطلب سوى خمس دقائق. في غضون يومين سأغادر هذه البلاد ولن أعود أليها.

ـ بإمكانك أن تأتي غداً. ولكن ليس قبل الثّامنة مساءً.

يقول:

ـ شكراً. سأكون في بيتنا، أقصدُ في بيتك عند الثّامنة والنّصف.

قطع المخابرة.

أمسح جبيني. وأعود إلى جلستي قبالة شاشة التلفزيون. فاتتني أحداثُ الفيلم. ثمَّ أذهب لرمي ما تبقّى من البسكويت في سلّة المهملات. لقد فقدتُ شهيّتي. «في بيتنا». بلى. كان هذا المكان «بيتنا» فيما مضى، ولكنَّ ما مضى قد مضى منذ زمن بعيد. والآن، إنّه «بيتي»، وكلُّ موجوداته هي ملك لي، أنا وحدي.

برفقٍ، أفتح باب غرفة الوالدة. إنّها نائمة. وتبدو نحيلة ضئيلة الجسم، كأنّها طفل صغير. أرفع خصلةً من شعرها الرّمادي عن وجهها وأقبّل جبينها وأداعبُ يديها المتغضّنتين المُسْبَلَتيْن فوق الغطاء. تبتسم في نومها وتشدُّ على يدي، وتغمغم قائلةً:

ـ يا صغيري، أهذا أنت؟

ثمَّ يتردّد اسمُ شقيقي على لسانها:

ـ لوكاس، يا صغيري لوكاس.

أغادر الغرفة؛ أحضرُ قنينة شراب من المطبخ وأجلسُ إلى مكتبي

وأوراقي على جاري عادتي كلَّ ليلة. لقد كان هذا المكتب وما عليه لوالدي. لم أبدّل فيه لا الآلة الكاتبة القديمة الطراز، ولا كرسيَّ الخَشَب غير المريح، ولا المصباح ولا علبة الأقلام. أحاول أن أكتب، ولكنّي لا أستطيع إلاّ أن أبكي حين يخطر ببالي ذلك «الأمر» الّذي أفسد علينا حياتنا، حياتنا جميعاً.

سيأتي لوكاس غداً. أعلمُ أنّه هو. ما إن رنَّ جرس الهاتف لأوّل مرّة حتّى علمتُ أنّه هو، ذلك أنّ هاتفي لا يرنّ أبداً تقريباً. وإن كنتُ أمتلكُ هاتفاً فمن أجل والدتي، في الحالات الطارئة، ولكي أطلب ما نحتاجه من مؤن حين لا أستطيع أن أذهب بنفسي إلى المتجر أو حين لا تسمح لي حالة أمّي الصحية بمغادرة البيت.

لوكاس سيأتي غداً. ما العمل لكي أخفي الأمْرَ عن والدتي؟ ولكي لا تستيقظ من نومها أثناء زيارة لوكاس؟ أأنقلها من البيت؟ أو أهرب؟ أين؟ وكيف؟ وكيف أفسّر لها الأمر؟ لم نغادر هذا المكان قطّ. أمّي لا تريد أن ترحل عن هذا البيت. فهي تعتقد أنّه المكان الوحيد الّذي يعرفه لوكاس للعثور علينا حين يعود.

وبالفعل، لقد عثر علينا هنا.

هذا إذا كان لوكاس بالفعل.

إنّه هو.

لا أحتاج لأيّ دليلٍ كي أعلم ذلك يقيناً. أعلمُ ذلك. وكنت أعلم، ولطالما علمتُ أنّه لم يمت، وأنّه سيعود.

ولكنْ، لِمَ الآن؟ بعدَ كلِّ هذه الأعوام؟ لماذا بعد خمسين عاماً من الغياب؟

يجب أن أحميَ نفسي. أن أحمي والدتي. لا أريد أن يُفسد

twitter @baghdad_library

لوكاس دَعَتنا وعاداتنا وسعادتنا. لا أريد انقلاباتٍ في حياتنا. وكلانا لن يُطيق بالطبع أن يعاود لوكاس نبشَ الماضي وتقليب الذّكريات وطرح الأسئلة على الوالدة.

يجب أن أُبعِدَ لوكاس بأيّ ثمن، أن أحول دون أن ينكأ الجُرْحَ البليغ.

إنّه فصل الشّتاء. وينبغي أن أقتصد باستهلاك الفحم. لذلك أستخدم مدفأة كهربائيّة لتدفئة غرفة أمّي، أشعلها لساعةٍ واحدة قبل موعدِ نومها وأطفئها حين تغفو، ثمَّ أعودُ وأشعلها مُجدّداً قبل أن تستيقظ بساعة واحدة.

أمَّا أنا، فيكفيني الدّفء الّذي يفدُ عليَّ من المطبخ ومن مدفأة الفحمِ في صالة الاستقبال. أنهضُ باكراً لأشعل نار الطبّاخ. وعندما يُصبح الجمرُ كافياً أحملُ منه حفنةً إلى موقدِ الصالة. وأضيفُ بعض قطع الفحم، وفي غضون نصف ساعة فقط يُصبح المكان دافئاً.

بعد ذلك، في ساعة متقدِّمة من ساعات المساء، وتكون أمّي قد أخلدت إلى النّوم منذ بعض الوقت، أفتح باب المكتب فيدلفُ إليه الدّفء من الصالة. إنَّ حجرة المكتب ضيّقة صغيرة، ولذلك سرعان ما تصبح دافئة. وعندئذٍ أرتدي بيجامتي والمبذل فوقها وأبدأ بالكتابة. وهكذا، بعد فراغي من الكتابة، أذهبُ مباشرةً إلى غرفتي وأنام.

هذا المساءُ أمكثُ حائراً قلقاً لا أهدأ، أطوفُ في أرجاء البيت

كمن يبحث عن شيء ولا يجده. أجتاز المطبخ مراراً ومراراً، أتوقّف فيه ثمَّ أقصد غرفة الأولاد. أنظرُ إلى الحديقة. أغصان شجرة الجوز العارية من الأوراق تلامسُ النّافذة. ثلجٌ خفيف يتساقط على الأغصان وعلى الأرض فيشكّلُ طبقةً رقيقة من الجليد.

أسيرُ من حجرةٍ إلى أخرى. لقد أبقيتُ باب المكتب مفتوحاً فهناك سأستقبل شقيقي. ولن أغلقه قبل أن يدخل شقيقي، ولابأس إذا كانت الحجرة باردةً، يجب ألاَّ تسمعنا أمّي ويجب ألاَّ توقظها محادثتنا.

وإذا استيقظت فماذا أفعل؟

أقول لها عندئذٍ:

ـ عودي إلى النّومِ يا أمّاه، إنّه مجرّد صحافي.

وأقول للآخر، لشقيقي:

ـ إنّها أنطونيا، حماتي، والدة زوجتي. إنّها تقيمُ معنا منذ بضع سنوات، منذ أن أصبحت أرملة. ليست في كامل وعيها. عقلها مشوَّش وتختلط عليها الأمور. وأحياناً تتخيَّل أنّها والدتي بحجّةِ أنّها ربَّتني.

يجب أن أبذل ما بوسعي لكي لا يلتقيا، وإلاَّ أمكن أن يتعرّف أحدهما بالآخر. أمّي ستتعرَّف إلى لوكاس. وحتَّى لو لم يتعرّف لوكاس إلى والدتنا، فستسارع إلى مناداته بالقول:

ـ لوكاس، يا بُنيَّ.

لا أريد أن أسمع هذه العبارة على الإطلاق، «لوكاس، يا بنيّ». أو على الأقلّ ليس الآن لأنّ الأمر سيكون في غاية البساطة.

twitter @baghdad_library

اليوم قدَّمتُ عقارب ساعات الحائط في المنزل حين كانت أمّي غارقةً في قيلولتها. ولحسن الحظّ أنَّ اللّيل يحلُّ باكراً في مثل هذا الفصل من السنة. ففي نحو الخامسة من بعد الظهر يكون الظّلام قد خيّم.

أُعدُّ طعام العشاء لوالدتي قبل موعده بساعة. هريسة الجزر والبطاطا، وقطعة من اللّحم المفروم المطبوخ، أمَّا الحلوى فقطعة من «الكريم كراميل».

أعدُّ المائدة في المطبخ وأذهب لإحضار الوالدة من غرفتها. تصحبني إلى المطبخ وتقول:

ـ لا أشعر بالجوعِ بعد.

أقول:

ـ إنَّكِ لا تشعرين بالجوع أبداً، يا أمّي. ولكن يجب أن تأكلي.

تقول:

ـ سآكل فيما بعد.

أقول:

ـ بعد قليل سيبرد الطّعام.

تقول:

ـ بإمكانك أن تسخّنه. أو إذا كنتَ لا ترغب في ذلك فلا آكل على الإطلاق.

أقول:

ـ سأصنع لك كوباً من النّقاعة السّاخنة تفتحُ شهيّتك.

أضعُ في كوب النُّقاعة قرصاً منوّماً من تلك الأقراص الّتي اعتادت تناولها. وأعطيها قرصاً آخر مع النُّقاعة.

بعد عشر دقائق تغفو أمّي أمام شاشة التلفزيون. أحملها بين ذراعيّ وأدخل بها غرفة نومها وأنزع عنها ثيابها وأُمدّدها فوق السرير.

أعودُ إلى الصالة. أخفضُ صوت التلفزيون، وأخفِّفُ كذلك من الإضاءة، أُعيدُ عقارب الساعات إلى التوقيت الصحيح.

لايزال لديَّ المتّسع من الوقت لكي أتناول طعامي قبل مجيء أخي. أجلسُ في المطبخ وألتهم بعض هريسة الجَزَر وقطعةً من اللّحمِ المفروم. دائماً أعدّ اللّحمَ المفروم لأنَّ أمّي لا تقوى على المضغ برغم طقم الأسنان الّذي وضعته منذ بعض الوقت. كما أنَّ هضمها ليس جيّداً جدّاً.

عندما فرغت من طعامي غسلت الأطباق، ووضعت ما تبقّى من أكل في الثلاّجة، وعليه فسيكون لنا ما يكفي بالضبط لوجبة الغداء في اليوم التّالي.

أجلس في الصالة. أضع كأسين وقنينة كحول على المنضدة قرب الكنبة الّتي أجلس عليها. أحتسي جرعاتٍ من كأسي وأنتظر. عند الثّامنة تماماً أذهب لتفقّد الوالدة. إنّها غارقة في سباتٍ عميق. ونحو الثّامنة والثّلث أكفُّ عن مشاهدة الفيلم وأقف خلف نافذة المطبخ. هنا المكان مظلم ولا يمكن لأحدٍ أن يراني من الخارج.

عند الثّامنة والنّصف تماماً أرى سيّارة سوداء فخمة تَرْكن بمحاذاة الرّصيف أمام المنزل. يترجَّلُ منها رَجُلٌ، يدنو من البوّابة الخارجيّة ويقرع الجرس.

twitter @baghdad_library

أهرع إلى الصالة وأقول له عبر الأنترفون:

ـ ادخل. البوّابة مفتوحة.

أضيء لمبة الڤيرندا، وأعود إلى جلستي المعتادة على الكنبة؛ يدخلُ شقيقي. إنّه نحيل وشاحب ويتقدّم نحوي عارجاً، يحملُ حقيبةً جلديّة تحت ذراعه. الدّموع تغشّي عينيَّ، أنهضُ وأمدّ يدي لمصافحته:

ـ على الرّحب والسّعة.

يقول:

ـ لن أمكثَ طويلاً. هناك سيّارة تنتظرني.

أقول:

ـ تعالَ إلى غرفة المكتب. لن يزعجنا أحدٌ هناك.

أتركُ صوت التلفزيون على حاله. وإذا استيقظت الوالدة من نومها فسوف تسمع رطانة الفيلم البوليسي على جاري العادةِ كلَّ ليلة.

يسأل شقيقي:

ـ ألا تُطفئ التلفزيون؟

ـ لا. لِمَ تسأل؟ لن نسمع الصوت في غرفة المكتب.

أحملُ معي القنينة والكأسين؛ أجلسُ إلى طاولتي وأشيرُ عليه بالجلوسِ على كرسيٍّ قبالتي:

ـ اجلس.

أرفع القنينة:

ـ أتريد كأساً؟

ـ أجل.

نحتسي الشراب. يقول أخي:

ـ كان هذا مكتب والدنا. لم يتبدَّل شيءٌ. أرى هنا المصباح نفسه، والآلة الكاتبة والأثاث والكراسي.

أبتسم:

ـ وماذا ترى أيضاً ممّا تتعرّفه جيّداً.

ـ كلّ شيء. الثيرندا والصالة. وأعلم أين يقع المطبخ وغرفة الأولاد وغرفة الوالدين.

أقول:

ـ إنّه ليس بالأمر الصعب. فكلُّ هذه المنازل قد صمِّمت على نحوٍ واحد.

يتابع:

ـ أمام نافذة غرفة الأولاد كانت هناك شجرة جوز. وكانت أغصانها تلامِسُ زجاجها. وهناك أرجوحة ثُبِّتت حبالها في أغصانها المرتفعة. أرجوحة بمقعدين. وفي مؤخِّر الفِناء، تحت السّقيفة كنّا نركن الدرّاجات ذات العجلات الثّلاث والدُّريَّجات الصغيرة.

أقول:

ـ لايزال هناك لُعَبٌ عدّة تحت السّقيفة، ولكنّا ليست اللُّعَبُ نفسها. فما نحتفظ به الآن يخصُّ أولادي.

نلزم الصمت. أملأ الكأسين مجدّداً. وبعد أن يحتسي لوكاس جُرعةً من كأسه، يسألُ:

ـ قُلْ لي، يا كلاوس، أين والدانا؟

ـ والدايَ تُوُفِّيا. أمّا والداك أنتَ فلا أدري.

ـ لِمَ لا ترفع الكلفة بيننا يا كلاوس؟ أنا شقيقك لوكاس. لماذا لا تصدِّقني؟

twitter @baghdad_library

ـ لأنَّ أخي قد مات. وأودّ أن ألقي نظرة على أوراقك الثبوتيّة، لو سمحت.

يمسكُ شقيقي بجواز سفر أجنبي ويعطيني إيّاه. يقول:

ـ لا تكترث كثيراً لما يردُ فيه. هناك بعض المعلومات الخاطئة.

أتفحّص الجواز:

ـ أنت تُدعى إذاً كلاوس بحرف .C؛ وتاريخ ميلادك غير مطابق لتاريخ ميلادي، والحالُ أنّنا، أنا ولوكاس، كنَّا توأمين. وأنت تكبرني بثلاث سنوات.

أردّ إليه الجواز. يدا شقيقي ترتعشان، ويتهدَّج صوته حين يقول:

ـ عندما عبرت الحدود كنتُ في الخامسة عشرة. وأعطيتهم هناك تاريخاً مغلوطاً لميلادي لكي أبدو أكبر سنّاً، أي لكي أبدو راشداً. فقد كنت أخشى أن أوضع تحت الوصاية.

ـ وماذا عن الاسم؟ لِمَ بدَّلت اسمك؟

ـ بسببك أنت، يا كلاوس. عندما كنتُ أملأ استمارة الاستجواب في مركز حرس الحدود، كانت صورتك أمام عينيَّ، كذلك اسمك، كان يدوّي في أذنيّ، اسمك الّذي رافقني طَوال أعوام طفولتي. وعندئذٍ، بدل أن أكتب لوكاس، كتبتُ كلاوس. وأعتقد أنَّك فعلت مثلي حين رحت توقّع قصائدك باسم كلاوس لوكاس. لِمَ اخترت لوكاس؟ أَلِذكرايَ؟

أقول:

ـ لذكرى شقيقي، بالفعل. ولكن كيف علمت أنّني أكتب القصائد؟

ـ أنا أيضاً أكتب، ولكنّي لا أكتب القصائد.

يفتح حقيبته ويُخرج منها دفتراً مدرسيّاً ضخماً ويضعه على الطاولة.

ـ هذه هي مخطوطتي الأخيرة. إنّها غير مكتملة. ولن يتّسع وقتي لإنجازها. لذلك أتركها لك. سوف تنجزها أنتَ. يجب أن تنجزها.

أفتح الدّفترة. ولكنَّه يمسكُ يدي بحركة مفاجئة:

ـ لا، ليس الآن. بعد رحيلي. هناك أمر أودّ أن أعرفه. كيفَ أُصبتُ بجرحي؟

ـ أيّ جرح؟

ـ هناك جرحٌ لصقَ عمودي الفقري. جرح تسبّبت به رصاصة. كيف جرى ذلك؟

ـ ومن أين لي أن أعلم؟ أخي لوكاس لم يُصَب بأيّ جرح. لقد أصيب بأحد أمراض الأطفال. شلل الأطفال، على ما أعتقد. وكنتُ في الرّابعة أو الخامسة من عمري حين مات. لا أذكر الآن بالضبط. وما أعرفه بهذا الشأن سمعته فيما بعد.

يقول:

ـ بلى، أنت على حقّ. طالما ظننتُ أنّني أصبتُ بمرضِ أطفال. هذا ما كانوا يقولونه لي طوال الوقت. ولكن فيما بعد علمت أنّني أُصبتُ برصاصة. أين؟ كيف؟ كانت الحربُ آنذاك في بدايتها.

ألزم الصمت وأهزُّ كتفيّ. يردف لوكاس قائلاً؛

ـ إذا كان شقيقك قد توفي حقّاً، فلابدَّ أنّه دفن في قبرٍ ما. أين قبره؟ أبإمكانك أن تدلّني عليه؟

ـ لا. لا أستطيع. لقد دفن أخي في مقبرةٍ جماعيّة في مدينة س.

twitter @baghdad_library

ـ هكذا إذاً؟ وقبرُ أبينا، وقبر أمّنا، أين هما؟ هل تستطيع أن تدلّني عليهما؟

ـ لا. لا أستطيع أن أفعل ذلك أيضاً. فوالدي لم يُعد من الحرب، أمّا والدتي فدفنت إلى جانب أخي لوكاس في مدينة س.

يسأل:

ـ إذن لم أمت من جرّاء شلل الأطفال؟

ـ لا، أخي لم يمت من جرّائه، لقد قتل خلال القصف. وكانت والدتي تصحبه إلى مدينة س. حيث يتلقّى العلاج في مركز لإعادة التأهيل. قد قُصف المركز ولم يَعُدْ أيٌّ منهما، لا أخي ولا أمّي.

يقول لوكاس:

ـ الّذي روى لك هذه القصّة كاذب. لم تصحبني أمّي إلى مدينة س، ولم تأتِ لزيارتي هناك ولو مرّة واحدة. لقد مكثتُ بضع سنوات في المركز وأنا أعتقد أنّني مصاب بشلل الأطفال إلى أن تعرّض للقصف. ولم أُقتل من جرّاء ذلك القصف؛ لقد نجوت.

فأهزّ كتفيّ وأقولُ زاعماً:

ـ أنت، بلى، نجوت. ولكنَّ أخي لم ينجُ ولا أمّي.

ينظر كلٌّ منّا في عيني الآخر. أتحمّل نظرته:

ـ الأمرُ، كما ترى، أمرُ مصيريْن مختلفيْن. وعليكَ أن تتابع بَحْثَكَ في وجهةٍ أخرى.

يهزّ رأسه:

ـ لا، يا كلاوس، وأنت تعلم ذلك جيّداً. أنت تعلم جيّداً أنّني شقيقك لوكاس ولكنّك تُنكر ذلك. مِمَّ تخاف؟ قُلْ لي يا كلاوس، ممَّ؟

أجيبُ:

ـ لا أخافُ من شيء. مِمَّ تراني أَخافُ؟ لو كنتُ مقتنعاً بأنّك شقيقي لكنتُ أسعد النّاس بلقائك والعثور عليك.

يسأل:

ـ وما الغرضُ من مجيئي إليك لو لم أكن شقيقك فعلاً؟

ـ لا أدري. هذا ناهيكَ عن مظهرك.

ـ مظهري؟

ـ أجل. انظر إليّ جيّداً ثمّ انظر إلى نفسك، ما وجه الشّبه الجسماني بيننا؟ لقد كنّا، أنا ولوكاس، توأمين حقيقيّين، وكنّا نتشابه كما تشبه النقطةُ النقطة. أمّا أنت فلا تشبهني وهزالك يجعلني أَحسبُ أنّ وزني يفوق وزنك بأكثر من ثلاثين كيلوغراماً.

يقول لوكاس:

ـ لقد نسيتَ أنّني كنتُ مريضاً، معوقاً. إنّها لمعجزة حقّاً أنّني استطعت أن أمشي من جديد.

أقول:

ـ دَعْنا من هذا. وأخبرني ماذا حلَّ بك بعد القصف.

يقول:

ـ ولمَّا لم يأتِ أحدٌ للسؤالِ عنّي وُضعت في وصاية فلاّحةٍ عجوز في مدينة ك. وهناك عشتُ وعملتُ حتّى رحيلي إلى الخارج.

ـ وماذا فعلت في الخارج؟

ـ تنقّلتُ بين مهنٍ من كلِّ نوع، ثمَّ انصرفتُ إلى تأليف الكتب. وأنتَ، يا كلاوس، كيف تدبّرت أمرك بعد وفاة الوالد والوالدة؟ فما رويته لي يؤكّد أنّك أصبحتَ يتيماً في سنٍّ مبكّرة.

ـ أجل. في سنٍّ مبكّرة جدّاً. ولكن لحُسْنِ طالعي لم أمكث في

twitter @baghdad_library

الميتم أكثر من بضعة أشهر. وبعد ذلك جاءت عائلةُ أحد الأصدقاء وربَّتني. لقد كنتُ أشعر بالسعادة في كنفِ هذه العائلة. عائلة مؤلَّفة من أبوين طيّبين وأربعة أولاد، تزوّجت فيما بعد الابنة البكر من بينهم وتدعى سارة. ورزقنا ولدين؛ صبيٌّ وفتاة. أمَّا الآن فقد أصبحتُ جَدّاً، وأشعر أنّني جَدٌّ تغمره السّعادة.

يقول لوكاس:

ـ إنّه أمرٌ محيِّر. عند دخولي إلى هذا المكان انتابني شعورٌ بأنّك تحيا هنا بمفردك.

ـ بالفعل، فأنا أعيش وحيداً في هذه الآونة. حتّى حلولِ عيد الميلاد. لديَّ عملٌ ملحٌّ يجب أن أُنجزه، عبارة عن مختارات من قصائدي الجديدة. بعد ذلك، سألتحق بسارة، زوجتي، وبأولادي وأحفادي في مدينة ك. وهناك سنمضي عطلة الشتاء معاً. ذلك أنّنا نمتلك في تلك المدينة منزلاً ورثناه عن ذوي زوجتي.

يقول لوكاس:

ـ لقد أمضيتُ بعض الوقت في مدينة ك. وأعرفها جيّداً. أين يقع منزلكم بالضبط؟

ـ في ساحة برنسيبال، قبالة الفندق الكبير، بجانب المكتبة.

ـ لقد أقمتُ في مدينة ك. مؤخّراً لبضعة أشهر، وكنتُ أسكن في الطبقة العلويّة من مبنى المكتبة.

أقول:

ـ يا لها من مصادفة. إنّها مدينة جميلة جدّاً، أليس كذلك؟ وفي طفولتي غالباً ما كنت أمضي فترات العطلة فيها. أحفادي يحبّونها كثيراً. ولاسيّما التوأمان، ابنا ابنتي.

ـ توأمان؟ ماذا يُدعيان؟

ـ كلاوس ولوكاس بالطبع.

ـ بالطبع.

ـ أمّا ابني فلم يرزق إلى الآن إلاّ بنتاً تدعى سارة كجدَّتها، أي زوجتي. ولكنَّه مازال شاباً، وبإمكانه أن ينجبَ هو أيضاً ولداً آخر أو اثنين.

يقول لوكاس:

ـ إنَّك رجل سعيد، يا كلاوس.

أجيبه:

ـ أجل. سعيد جدّاً. وأنت أيضاً. أحْسَب أنَّ لك عائلة.

يقول:

ـ لا. لطالما عشتُ وحيداً.

ـ لماذا؟

يقول لوكاس:

ـ لا أدري. ربَّما لأنّني لم أجد مَنْ يعلّمني الحبّ.

أقول:

ـ إنّه أمرٌ مؤسف. الأولاد يمنحون البهجة. ولا أستطيع أن أتخيّل حياتي من دونهم.

ينهض أخي:

ـ هناك مَنْ ينتظرني في السيّارة. لا أريد أن أسبّب لك مزيداً من الإزعاج.

أبتسمُ:

ـ لا إزعاج البتّة. والآن، هل ستعود إلى موطنك بالتبنّي؟

ـ بالطبع. لم يعد لديَّ هنا ما أفعله. الوداع يا كلاوس.

أنهض:

twitter @baghdad_library

ـ سأصحبك إلى الباب.

عند بوّابة الحديقة أمدّ له يدي:

ـ إلى اللّقاء يا سيّد. آمل أن تجدَ أخيراً عائلةً لك، تكون حقيقيّة. أتمنّى لك التوفيق.

يقول:

ـ أنتَ مصرٌّ على إتمام دورك إلى النهاية، يا كلاوس. لو كنتُ أعلم أنّ قلبك بمثل هذه القسوة لما صرفتُ عمري في البحث عنك. إنّي آسف فعلاً لأنّني جئتُ إليك.

يصعدُ أخي إلى السيّارة الكبيرة السوداء الّتي انطلقت على الفور وأبعدته.

وفيما أنا أصعد سلَّم الڤيرندا تنزلق قدمي فوق الجليد وأقعُ أرضاً فيترتطمُ جبيني بزاوية العتبة، ينزف الدّمُ من جبيني ويغشّي عينيَّ ممتزجاً بدموعي. أودُّ لو أمكثُ هنا مُلقىً على الأرض حتّى تجمد أوصالي وأموت، ولكنّي لا أستطيع، يجب أن أُعنى بوالدتي في الصباح الباكر.

أدخل إلى البيت، وأقصد الحمّام على الفور، فأغسل جرحي وأطهّره ثمَّ أضمّده؛ وبعد ذلك أعودُ إلى غرفة المكتب لأبدأ بقراءة المخطوطة الّتي تركها شقيقي.

في صبيحة اليوم التّالي، تسأل أمّي:

ـ كيفَ أصبت بهذا الجرح يا كلاوس؟

أقول:

ـ وقعت عند العتبة. نزلت لأتأكّد من إقفال البوّابة فانزلقتُ على الجليد.

تقول أمّي:

ـ لابدَّ أنّك أفرطت في الشراب. إنّك مجرّد سكّير وعاجز وأخرق. ألم تُعِدَّ الشّاي بعد؟ إنّه أمرٌ لا يُصدَّق حقّاً! وزيادةً في الطين بلّة، أشعر ببردٍ شديد. أليس بإمكانك أن تنهض مبكِّراً نصف ساعة لكي أجد المنزل دافئاً والشاي جاهزاً حين أنهض؟ إنَّك مجرّد كسول، ولا خيرَ يُرجى منك.

أقول:

ـ هذا شايك. وفي غضون دقائق سيدفأ البيت، أعِدُكِ بذلك. الحقيقة أنّني لم أنم على الإطلاق، لقد انكببتُ على الكتابة طَوال اللّيل.

تقول:

ـ أليس ذاكَ أدهى وأمرّ؟ فالسيّد يستغرقُ في الكتابة طوال اللّيل بدل أن ينصرفَ إلى تدفئة البيت وإعداد الشّاي. الأحرى بك أن تكتب خلال النّهار، أن تعمل كما يعمل النّاس، وليس خلال اللّيل.

أقول:

ـ أجل، يا أمّي. إنّه من الأفضل حقّاً أن أعمل خلال النّهار. ولكنّي أثناء عملي في المطبعة اعتدتُ العَمَلَ في ساعات اللّيل. ما باليدِ حيلة. وعلى أيّة حال، ثمّة أمور كثيرة تشغلني خلال ساعات النّهار. هناك فترة التسوّق وإعداد الطعام، وهناك بخاصّة ضجيج الشّارع.

twitter @baghdad_library

تقول أمّي:

ـ وهناك أنا أيضاً، أليس كذلك؟ قُلْها، قُلْها بوضوح، أنا مَنْ يشغل نهارك. لا تستطيع أن تكتب إلاّ بعد أن تخلد أمّك إلى النّوم وتغفو، أليس كذلك؟ أراكَ دائماً تحثّني على النّوم باكراً لكي تنصرف إلى أمور أخرى. لقد أدركتُ ذلك. لقد أدركتُ ذلك منذ زمن بعيد.

أقول:

ـ حقّاً يا أمّاه. كم أحتاج للوحدة المطلقة حين أكتب. أحتاج إلى السكينة المطبقة والعزلة.

تقول:

ـ لستُ مِمَّن يُحْدِثون صخباً كبيراً أو يقتحمون عزلات الآخرين، حَسْبَ عِلْمِيْ. ما عليك إلاّ أن تطلب ذلك منّي فلا أغادر غرفتي على الإطلاق. لن أزعجك بَعْدَ الآن. ولن يتوجّب عليك أن تتكبّد مشقّة التسوُّق أو إعداد الطعام، وستنصرفُ بالكليّة إلى الكتابة حالما يُواريني التّراب. فهناك، على الأقلّ، ألتقي ابني لوكاس الّذي ما أساء معاملتي قَطّ؛ لوكاس الّذي لم يتمنَّ لي الموت أو الغياب. هناك، سأعرفُ السّعادة ولن يكون لأحد أيّ مأخذ عليّ.

أقول:

ـ أمّاه، أؤكّد لك أنّني لا ألومك على شيء، وأنّك لا تزعجينني على الإطلاق، كلّ ما أفعله إنّما أفعله عن طيب خاطر، التسوّق وإعداد الطّعام. ولكنّي أحتاج ساعات اللّيل للكتابة. فمنذ أن تخلّيت عن عملي في المطبعة أصبحت قصائدي هي مورد رزقنا الوحيد.

تقول:

ـ هذا ما أقصده بالضبط. كان الأجدر بك أن تواصل عملك في المطبعة. فعمل المطبعة هو العمل الطبيعي والمتعقّل.

أقول:

ـ ولكنَّك تعلمين جيّداً يا أمّاه أنَّ المرض هو الّذي أرغمني على تَرْكِ عملي. فلو تابعت العمل هناك لقتلني المرض.

لَزِمَتْ أمّي الصمت، وجلست قبالة التلفزيون، ولكنَّها عاودت شكواها حالما جلست إلى مائدة الطعام:

ـ إنَّ المنزل يوشك على الخراب. أنابيب الصرف الصحّي باتت تالفة والمياه تتدفَّق كيفما اتّفق في أنحاء الحديقة، وقريباً جدّاً سوفَ تمطر داخل المنزلِ عبر شقوق السّقفِ والجدرانِ. الأعشاب البريّة تغزو الحديقة، وقد اسودّت جدران الحجرات بسبب الدّخان، دخان سكائر السيّد المصون. جدران المطبخ أصبحت صفراء بسبب هذا الدّخان، وكذلك ستائر النّوافذ وصالة الاستقبال. ناهيكَ عن حجرة المكتب أو غرفة الأولاد حيث أُشبعَ الأثاث بالدخان حتَّى العفن. بات يستحيل علينا التنفُّس في هذا البيت، وحتَّى في الحديقة حيث تذبل الورود من جرّاء الوَخَم الّذي يجتاحها ومصْدَرُه البيت.

أقول:

ـ أجل يا أمّاه. اهدئي قليلاً، يا أمّاه. ما من ورود في الحديقة لأنّنا في عزِّ الشتاء. وسأعمد إلى دَهْنِ الجدران في الغرفِ والمطبخ. حسناً فعلتِ إذ أشرتِ عليّ بذلك. حين يحلّ الرّبيع سأتدبّر كلّ هذه الأمور وسأعمل على إصلاح أنابيب الصرف.

بعد أن تناولت أمّي قرصها المنوّم هدأت ومضت إلى السرير.

أجلس قبالة التلفزيون، أتفرّج على الفيلم البوليسي على جاري عادتي كلَّ مساء، وأشرب. بعد ذلك أدخل غرفة المكتب وأعيد قراءة الصفحات الأخيرة من مخطوطة شقيقي، ثمَّ انصرفُ إلى الكتابة.

twitter @baghdad_library

كنَّا أربعة دائماً ونحن إلى المائدة. أبي وأمّي وأنا وشقيقي.

كانت أمّي تُغنّي طَوال النّهار. في المطبخ، في الحديقة، في الفِناء. وكانت تغنّي أيضاً في غرفتنا عند المساء لتهدهد نومنا.

أبي لم يكن يُغنّي. كان أحياناً يَصَفّرُ بعض الألحان الرّائجة وهو يقطع الخشب للطبّاخ، وكنَّا نَسْمع طقطقة آلته الكاتبة عند المساء وحتَّى ساعة متأخِّرة من اللّيل.

كانت تلك الطقطقة الرتيبة محبَّبة ومُطَمْئِنَة كَلَحنِ موسيقى، كوجيب ماكينة الخياطة الّتي تستخدمها أمّي، كقرقعة الأواني في المَجْلى، وإنشاد الشحارير في الحديقة، وحفيف النّسائم بين أوراق الدّالية البرّيّة المعرّشة على جدران الڤيرندا وخَلَل أغصان شجرة الجوز في الفِناء.

الشّمس والرّياح واللّيل والقمر والنجوم والسُّحُب والمطر والثلج، كلُّها كانت فائقة الرّوعة. وما كنّا نخشى شيئاً. لا نخاف الظلالَ المعتمة ولا الحكايات الّتي يتندَّر بها الرّاشدون. حكايات الحرب. كنَّا في الرّابعةِ من العُمر.

وذات مساء وصل أبي إلى المنزلِ مرتدياً بزَّةً نظاميّة. وعلّق معطفه وحزامه على المشجب لِصْقَ باب الصالة. ومن نطاقه العسكري كان يتدلَّى جَرَابُ مُسدَّس.

يقول أبي خلال تناولنا الطعام:

ـ يجب أن ألتحق بمدينة أخرى. لقد أعلنت الحرب، وتمَّ استدعائي للخدمة العسكريّة.

نقول:

ـ لم نكن نعلم أنَّك عسكري يا أبي. أنتَ صحافي لا جندي.

يقول:

ـ في زمن الحرب، كلُّ الرّجالِ يُصبحون جنوداً، حتَّى الصحافيّون. بل الصحافيّون على الأخصّ. يجب أن أراقب ما يجري على الجبهات وأصفه. وهذا ما يُسمّى الخدمة كمراسلٍ حربي.

نسأل:

ـ ولِمَ المسدَّس؟

ـ لأنّني ضابط. الجنود يحملون البنادق، أمّا الضبّاط فيحملون المسدّسات.

يقول أبي مخاطباً أمّي:

ـ اصحبي الولدين إلى سريريهما. لديَّ ما أقوله لك.

تقول أمّي:

ـ هيّا إلى السرير. سأوافيكما بعد قليل لأروي لكما حكاية. ودّعا والدكما.

نقبِّلُ أبي ونذهب مباشرة إلى غرفتنا، ولكنَّنا لا نلبث أن نعود أدراجنا خلسةً ونجلسُ في الدّهليز خلفَ باب الصالة.

يقول أبي:

ـ يجب أن أنتقل للسكَنِ معها. إنَّها الحرب، ولم يبقَ من العمرِ متَّسعٌ لأقضيه بعيداً عنها. إنّني أحبُّها.

تسأل أمّي:

twitter @baghdad_library

ـ ألا تفكّر في الوَلَديْن؟

ـ وهي أيضاً، إنّها تنتظر مولوداً. ولهذا السّبب يجب أن أفعل شيئاً.

ـ أترغب في الطلاق؟

ـ ليس الآن. بعد انتهاء الحرب، سنرى. وفي أثناء ذلك يجب أن أصرِّح بأبوّة المولود الجديد. فقد لا أعود أبداً من الحرب. لا أحد يدري.

تسأله أمّي:

ـ أما عُدْتَ تحبّنا؟

يقول أبي:

ـ ليست هذه هي المسألة. بلى، أحبّكم. وسأعتني بك وبالولدين على الدّوام. ولكني أحبّ أيضاً امرأةً أخرى. أليس في استطاعتك أن تتفهّمي مثل هذا الأمر؟

ـ لا. لا أستطيع ولا أريد أن أتفهّم ذلك.

ثمَّ نسمع طَلَقاً نارياً. نفتح باب الصالة. أمّي هي الّتي أطلقت النّار. تحمل مسدَّس والدي. تُطلق رصاصة أخرى. أبي ممدَّدٌ على الأرض. أمّي تُطلق النّار. بجانبي، يقع لوكاس أرضاً، هو أيضاً. ترمي أمّي المسدّس، وتزعقُ منتحبةً، ترتمي على ركبتيها بجانب لوكاس.

أهرعُ إلى الخارج، وأركضُ في الشوارع صارخاً:

ـ «النّجدة»، يُمسكُ بي بعضُ المارّة، ويعيدونني إلى المنزل حيث يحاولون تهدئتي. ويحاولون أيضاً تهدئة أمّي، ولكنّها تواصل نحيبها وصراخها: «لا، لا، لا».

تغصُّ الصالة بالوافدين تباعاً. ثمَّ يصل رجال الشرطة وسيارتا إسعاف. ويتمّ نقلنا جميعاً إلى المستشفى.

في المستشفى يُعاجلونني بحقنة منوِّمة لأنّني لم أتوقّف عن الصراخ.

وفي اليوم التالي، يقول الطبيب:

ـ إنّه على خير ما يرام. لم يُصَب. بإمكانه مغادرة المستشفى.

تقول الممرّضة:

ـ يُغادر إلى أين؟

ـ لم يبق في منزله أحدٌ للاعتناء به. إنّه في الرّابعة من عمره.

يقول الطبيب:

ـ اتّصلي بالمرشدة الاجتماعيّة.

تصحبني الممرّضة إلى أحد المكاتب. المرشدة الاجتماعيّة امرأة عجوز مصفَّفة الشعر في جديلةٍ ملتفَّة عند مؤخّر الرّأس. تطرح عليّ أسئلة:

ـ أليس لكَ جدّة؟ أو عمّة؟ أو جارة تحبّك؟

أسأل:

ـ أين لوكاس؟

تقول:

ـ إنّه هنا في المستشفى. لقد أصيب بجرح.

أقول:

twitter @baghdad_library

ـ أريد أن أراه.

تقول:

ـ مازال في غيبوبة.

ـ وهذا يعني؟

ـ هذا يعني أنّه لا يستطيع الكلام الآن.

ـ مات؟

ـ لا، لكنّه في حاجةٍ إلى الرّاحة.

ـ وأمّي؟

ـ أمُّك على خير ما يرام. ولكنَّك لن تستطيع أن تراها هي أيضاً.

ـ لماذا؟ هل أصيبت هي الأخرى؟

ـ لا، إنّها نائمة.

ـ وأبي، أهو نائمٌ أيضاً؟

ـ أجل، أبوك نائمٌ هو أيضاً.

وتداعب شعري:

أسأل:

ـ لماذا ينامون جميعاً، ولا أنام أنا؟

تقول:

ـ هكذا. مثل هذه الأمور تحدث أحياناً، ذات يوم ينام كلّ أفراد الأسرة، ومن يبقى منهم مستيقظاً، يمكث وحيداً.

ـ لا أريد أن أمكث وحيداً، أريد أن أنام، أنا أيضاً، مثل لوكاس، مثل أمّي، مثل أبي.

تقول:

ـ يجب أن يبقى أحدٌ ما مستيقظاً لكي ينتظرهم ويعتني بهم حين يعودون، حين يستيقظون.

ـ هذا يعني أنّهم سيستيقظون؟

ـ بعضهم سيستيقظ بالتأكيد، أو، في الأقل، يجب أن نأمل ذلك.

نلزم الصمت لبعض الوقت. نسأل:

ـ ألا تعرف مَنْ يستطيع أن يعتني بك في غضون ذلك.

أسأل:

ـ في غضون ماذا؟

ـ بانتظار عودة أحد أفراد أسرتك.

أقول:

ـ لا. لا أعرف أحداً. ولا أرغب في أن يعتني بي أحد. أريد أن أعود إلى منزلي.

تقول:

ـ لا تستطيع أن تحيا هناك بمفردك في مثل سنّك. وإذا كنت لا تعرفُ أحداً من شأنه أن يعتني بك، فسأكون مُرغمة على نقلك إلى ميتم.

أقول:

ـ سيّان عندي. إذا كنتُ لا أستطيع أن أعود إلى منزلي، فلا أبالي أين أذهب.

تدخل امرأة المكتب، وتقول:

ـ لقد جئتُ لاصطحاب هذا الصبيّ. أريد أن يحيا معنا، في منزلنا. لم يبقَ له أحدٌ. ثمَّ إنّي أعرفُ والديه.

تأمرني المرشدة الاجتماعيّة بأن أغادر المكتب وأنتظر في الممشى. ثمّة أناس في الممشى، يجلسون على مقاعد طويلة ويتبادلون الأحاديث. جميعهم، تقريباً، يرتدون ملابسَ النّوم.

twitter @baghdad_library

يقولون:

ـ إنّه أمرٌ رهيب.

ـ إنّها لكارثة حقّاً، لقد كانت أسرة مثالية.

ـ ما فَعَلَتْه هو عين الصواب.

ـ الرّجال، هذا ما يقترفه الرّجال.

ـ أيُّ عارٍ هذا، كم أشفق على النّساءِ مثيلاتها.

ـ وكلُّ هذا يحدثُ الآن، وقد اندلعت الحرب.

ـ لدى النّاس من الهواجس الأخرى ما يشغلهم.

تغادر المكتبَ المرأةُ الّتي قالت: «أريد أن أصطحب الصبي للعيش معنا». وتقول لي:

ـ بإمكانك أن ترافقني. اسمي أنطونيا. وأنتَ؟ أنتَ تُدعى لوكاس أم كلاوس؟

أمسك يَدَ أنطونيا:

ـ أُدعى كلاوس.

نستقلّ الباص، ثمَّ نمشي لبعض الوقت. نصل إلى البيت فندخلُ غرفة صغيرة فيها سرير كبير، وسرير آخر صغير أشبه بالقفص.

تقول لي أنطونيا:

ـ مازلت صغيراً جدّاً فلا تستطيع أن تنام على هذا السرير الكبير، أليس كذلك؟

أقول:

ـ أجل.

وأستلقي فوق السرير الصغير الّذي يكاد يتّسع لي، إذ تلامسُ قدمايَ قضبان جنبته السّفلى.

وتقول أنطونيا أيضاً:

ـ السرير الصغير للمولود الّذي أنتظره. سيكون بمثابة شقيق أو شقيقة لك.

أقول:

ـ لي شقيق بالفعل. ولا أريد شقيقاً آخر. كما لا أريد شقيقةً أيضاً.

تقول أنطونيا وقد استلقت على السرير الكبير:

ـ تعالَ، اقترب منّي.

أنهضُ عن سريري وأقف بجانب سريرها. تمسكُ يدي وتضعها فوق بطنها:

ـ أتتحسَّسُه؟ إنّه يتحرّك. وقريباً جدّاً سيُصبح معنا هنا.

تجذبني إلى صدرها وتحضنني مُهدهدةً:

ـ آمل أن يكون جميلاً مثلك.

ثمَّ تحملني وتعيدني إلى السرير الصغير.

وكلّما كانت أنطونيا تحتضنني وتهدهدني بين ذراعيها كنتُ أتحسَّس حركة الجنين وكنتُ أحسبُ أنّه لوكاس. كنتُ مخطئاً في حسباني. فالطفل الّذي خَرَج من بطن أنطونيا كان بنتاً.

أنا جالسٌ في المطبخ. امرأتان عجوزان أمرتاني أن أمكث في المطبخ. أسمع صراخ أنطونيا. لا أحرّكُ ساكناً. تأتي العجوزان من حين إلى آخر لتسخين المياه وتقولان لي:

ـ الزم الهدوء.

twitter @baghdad_library

فيما بعد قالت لي إحداهما:

ـ بإمكانك أن تدخل.

أدخلُ الغرفة، تمدّ لي أنطونيا ذراعيها، وتقبّلني. تقولُ ضاحكةً:

ـ إنّها بنتٌ صغيرة. انظر إليها. بنتٌ صغيرة وجميلة، إنّها أختك.

ألتفت نحو السرير الصغير. أرى شيئاً صغيراً بنفسجيَّ اللّون لا يكفّ عن العويل. أمْسِكُ يدها، وأعدُّ الأصابع، ألمسها واحدة تلو الأخرى، لها عشر أصابع. أَدسُّ إبهامها الأيسر في فمها، فتكفّ عن البكاء.

أنطونيا تبتسم لي:

ـ سندعوها سارة. أيحلو لك الاسم؟

أقول:

ـ أجل. أيّ اسم. لا فرق. إنّها أختي الصغيرة، أليس كذلك؟

ـ أجل، أختك الصغيرة.

ـ وأخت لوكاس أيضاً؟

ـ أجل، أخت لوكاس أيضاً.

تجهشُ أنطونيا بالبكاء. أسألها:

ـ أين سأنام من الآن فصاعداً، بعد أن شغلت الصغيرة السرير؟

تقول:

ـ في المطبخ. لقد طلبت من أمّي أن تُعِدَّ لكَ فراشاً في المطبخ.

أسأل:

ـ أيعني هذا أنّني لن أستطيع أن أنام في غرفتك بعد اليوم؟

تقول أنطونيا:

ـ الأفضل لك أن تنام في المطبخ. ذلك أنَّ الصغيرة ستوقظ الجميع مراراً في اللّيل.

أقول:

ـ إذا بكت، إذا أزعجتك، فما عليك إلاّ أن تضعي إبهامها في فمها. إبهام يدها اليسرى، كما فعلتُ.

أعود إلى المطبخ، لم يعد هناك سوى عجوز واحدة، والدة أنطونيا. تُعِدُّ لي فطيرةً بالعَسَل وكوباً من الحليب. ثمَّ تقول لي:

ـ أخلد إلى النّوم يا صغيري. هيّا، اختر الفراش الّذي يحلو لك.

مرتبتان وضعتا على الأرض وعليهما أغطية ووسادتان. أختار المرتبة الّتي فُرِشت تحت النّافذة. فهكذا سأتمكّن من الاستغراق في تأمُّل السّماء والنجوم.

تستلقي والدة أنطونيا على المرتبة الأخرى، وقبل أن تخلد إلى النوم تُصَلّي:

ـ إلَهي، كُلِّيَّ القدرة، كُنْ في العون. المولود الجديد لا أب له. ابنتي والمولود الّذي لا أب له! لو علم زوجي بالأمر لحلَّت الكارثة! لقد كذبتُ عليه. أخفيتُ عنه الحقيقة. وذاك الولد الآخر الّذي ليس ابنها أيضاً! وكلّ هذه المصائب. ماذا أفعل لأستحقَّ الخلاص لروح هذه الخاطئة؟

تواصل الجدّة غمغمتها فأغفو مُغتبطاً لأنّي سأمكثُ بالقربِ من أنطونيا وسارة.

تقوم والدة أنطونيا بإعداد الطعام، وتَغْسِلُ المولود وتبدِّل بياضاته مراراً في اليوم الواحد. تغسل الثياب وتنشرها على حبال مُدَّت فوقنا، في المطبخ. وخلال انغماسها في كلِّ ذلك لا تكفّ عن الغمغمة. ربّما هي صلوات.

twitter @baghdad_library

لا تمكث هنا مدّة طويلة. لم تمضِ عشرة أيّام على ولادة سارة، وها هي تحزم حقائبها وترحل بصُحبةِ صلواتها.

إقامتي في المطبخ مريحة جدّاً. عند الصباح أنهض باكراً لأحضر الخبز والحليب. وحالما تنهض أنطونيا من نومها أدخلُ الغرفة حاملاً رضَّاعةً لسارة وفنجان قهوة لأنطونيا. أحياناً أتولّى إطعام سارة بنفسي وبعد ذلك يُسمح لي أن أساعِدَ في حمّامها اليومي، وأحاول عندئذٍ إضحاكها بواسطة اللُّعَب الّتي ابتعناها لها معاً أنا وأنطونيا.

سارة تزداد جمالاً. ينبت لها شعرٌ وأسنان، وباتت تعرف كيف تضحك وتجيد مصّ إبهام يدها اليسرى.

ولكن لسوء الحظ، بات يتوجّب على أنطونيا أن تستأنف عملها لأنَّ والديها امتنعا عن تزويدها بالمال.

هكذا أصبحت أنطونيا تغادر المنزل كلَّ مساء. إنّها تعمل في ملهىً ليليّ حيث ترقص وتغنّي، ولا تعودُ من عملها إلاَّ في ساعةٍ متأخّرة من اللّيل، فيتعذّر عليها أن تعتني بسارة.

تأتي إحدى الجارات كلَّ صباح لتشرف على حمّام سارة، ثمَّ تضعها داخل حاضنتها المسيَّجة الموضوعة في المطبخ، إلى جانب لعبها الكثيرة. أُلاعبها خلال انهماك الجارة بإعداد طعام الغداء وغسلِ الثياب. وبعد أن تُنهي الجارة غَسْل الأواني تغادرنا، وأتولّى بنفسي إنجاز كلّ الأمور الأخرى إذا استغرقت أنطونيا في نومها.

خلال ساعات ما بعد الظهر أقوم بنزهات طويلة مصطحباً سارة في عربتها الصغيرة. نتوقّف في المنتزهات العامّة حيث مساحات واسعة للعب، وأدع سارة تتراكض لبعض الوقت فوق العشب الأخضر، أو تلهو بالرمال أو أعينها على استخدام الأراجيح.

هاأنذا أبلغ السّادسة، ويَصيرُ لِزاماً عليّ أن أذهب إلى المدرسة. رافقتني أنطونيا في يومي الأوّل وراحت تتحدّث إلى المعلّمة ثمَّ تركتني هناك وحدي. حالما تنتهي الدّروس أهرعُ إلى البيت راكضاً لكي أطمئنّ إلى أنّ الأمور على ما يرام، ولكي أصحب سارة في نزهتنا اليوميّة.

كنَّا دَرَجْنا على أن تكون نزهاتنا أبعد فأبعد، وهكذا أجدني، ذات يوم، وبمحض المصادفة، في الشارع الّذي ترعرعت فيه، أقصد الشارع الّذي كنّا نقيم فيه أنا وأسرتي.

أخفي الأمر عن أنطونيا والآخرين. ولكن كلَّ يوم أتدبَّر ذريعةً للعبور أمام المنزل ذي النّوافذ الخضراء وأتوقّف هنيهةً هناك وأبكي. تراني سارة على هذه الحال وتبكي هي أيضاً.

المنزل مهجور. النّوافذ موصدة ومدخنة المدفأة لا تُطلقُ دخانها المُعتاد. حديقة الباحة الأماميّة مهملة تغزوها الأعشابُ البرّيّة؛ أمَّا في الفناءِ، في الباحة الخلفيّة، فلابدَّ أنَّ ثمرات الجوز قد تساقطت عن الشجرة ولم يجمعها أحد.

ذات مساء، تنام سارة فأغادر المنزل. أركضُ في الشوارع دون أن أحدث جلبةً في الظُلمةِ المطبقة. أضواء المدينة مُطفأة بسبب الحرب، وقد طُلي زجاج النّوافذ بما يَجْعلها معتمةً لا تعكس الأضواء في الدّاخل. ضوءُ النّجوم يكفيني، فكلُّ الشّوارع والممرّات محفورة في ذاكرتي.

أتسلّق السياج، وأدور حول البيت، لأجلس عند جذع شجرة الجوز. تلامسُ يدايَ ثمراتٍ جافّة يابسة بين العشب. أملأ بها

twitter @baghdad_library

جيوبي. وفي اليوم التّالي أحضر جراباً كبيراً وأملأه بثمار الجوز. وما إن ترى أنطونيا الجراب في المطبخ حتّى تسألني:

ـ من أين أتيت بهذا الجوز؟

أقول:

ـ من حديقتنا.

ـ أيّ حديقة؟ ليس لدينا حديقة.

ـ من حديقة المنزل الّذي كنت أسكنه من قبل.

تُجلسني أنطونيا على ركبتيها:

ـ كيف عثرت عليه؟ وكيف يُعقَل أنّك مازلت تذكره؟ كنتَ في الرّابعة آنذاك.

أقول:

ـ والآن، بلغت الثّامنة. أخبريني يا أنطونيا ما الّذي جرى؟ أخبريني أين هم جميعهم؟ ماذا حلَّ بهم؟ أبي وأمّي ولوكاس؟

تجهشُ أنطونيا بالبكاء وتضمّني بقوّة إلى صدرها:

ـ كنتُ آمل أن تنسى كلَّ شيء. لم أخبرك شيئاً لكي تنسى كلُّ ما جرى.

أقول:

ـ لم أنسَ شيئاً على الإطلاق. كلّ مساء حين أستغرقُ في تأمّل السّماء، تحضرني ذِكراهم. إنّهم جميعاً هناك، في السّماء، أليس كذلك؟ لقد ماتوا، جميعهم.

تقول أنطونيا:

ـ لا. لم يموتوا جميعهم. فقط والدك. بلى. والدك هو الّذي مات.

ـ وأمّي، أين هي:

ـ في مستشفى.

ـ وأخي لوكاس؟

ـ في مركز لإعادة التأهيل. في مدينة س.، على مقربةٍ من الحدود.

ـ ما الّذي أصابه؟

ـ لقد أصيب برصاصة طائشة.

ـ أيّ رصاصة؟

تدفعني أنطونيا لتبعدني عنها وتنهض:

ـ دعني يا كلاوس، دعني، أرجوك.

تدخل الغرفة، وتستلقي فوق السرير، وتواصل نحيبها. فتجهشُ سارة بالبكاء، هي أيضاً. أحملها بين ذراعيّ وأجلس على حافة سرير أنطونيا.

ـ لا تبكي أيا أنطونيا. أخبريني كلَّ شيء. الأفضل أن أعلم كلَّ شيء. لقد أصبحتُ كبيراً الآن وبإمكاني أن أعرف الحقيقة. الحيرة الّتي تتملّكني والأسئلة الّتي تراودني أسوأ بكثير من معرفة الحقيقة.

تحمل أنطونيا سارة وتمدِّدها إلى جانبها وتقول لي:

ـ هيّا، استلقِ على الناحية الثّانية، إلى أن تنام الصغيرة. يجب ألاَّ تسمع ما سأقوله لك.

نمكثُ، نحن الثّلاثة، ممدَّدين فوق السرير، صامتين لبعض الوقت. أنطونيا تداعب شعرَ سارة تارةً وتداعبُ شعري تارةً أخرى. وعندما تتناهى إلينا وتائر تنفّسها منتظمةً رتيبة ندركُ أنّها غَفَت.

twitter @baghdad_library

وعندئذٍ تبدأ أنطونيا بالكلام محدِّقةً في السّقف. وتخبرني كيف قتلت أمّي أبي.

أقول:

ـ مازلتُ أذكر الطلقات الناريّة وسيّارات الإسعاف. مازلتُ أذكر لوكاس. هل أطلقت أمّي الرّصاصَ على لوكاس أيضاً؟

ـ لا. لقد أصيب لوكاس برصاصة طائشة. لقد أصابته الرّصاصة قربَ العمود الفقري. وغرقَ في غيبوبة تامّة بضعة أشهر، وكان الأطباء يرجّحون أنّه سيظلّ مقعداً طَوال حياته. لكنَّهم الآن يأملون بشفائه التامّ.

أسأل:

ـ وأمّي، أهي أيضاً في مدينة س.؟

تقول أنطونيا:

ـ لا. أمُّك ماتزال هنا، في هذه المدينة، في مصحّة للأمراض العقليّة.

أسأل:

ـ للأمراض العقليّة؟ ماذا تقصدين؟ أهي مريضة أم مجنونة؟

تقول أنطونيا:

ـ الجنون مرضٌ كسواه من الأمراض.

ـ هل أستطيع أن أراها؟

ـ لا أدري. ولكن يجب ألاّ تفعل. سوف يُحزنك ذلك.

أصمتُ بعض الوقت مُستغرقاً في التفكير، ثمَّ أسألها:

ـ وما الّذي أفقدها عقلها؟ ولِمَ قتلت أبي؟

تقول أنطونيا:

ـ لأنَّ أباك كان يُحبّني، كان يحبّنا، أنا وسارة.

أقول:

ـ لم تكن سارة قد وُلِدتْ بعد. إذاً، كلُّ الّذي جرى بسببكِ. بسببكِ أنت. لولاكِ لما تبدَّدت السّعادة الّتي كانت تخيّم على المنزلِ ذي النّوافذ الخضراء حتَّى أثناء الحرب، لا بل حتَّى ما بعد انتهاء الحرب. لولاكِ لما مات أبي، ولما جُنَّت أمّي، ولما أصبح أخي مقعداً، ولما أصبحتُ وحيداً.

تلزم أنطونيا الصمت. فأغادر الغرفة.

أهرع إلى المطبخ وآخذ النقود الّتي تركتها أنطونيا لشراءِ احتياجات كلّ يوم. كلّ مساء تعمد أنطونيا إلى تركِ المال اللاّزم لمشتريات اليوم التّالي على طاولة المطبخ. لكنَّها لا تحاسبني قطّ.

أغادر المنزل. وأسيرُ بعض الوقت حتّى أصل إلى شارع عريض تزدحمُ فيه حركة الباصات والحافلات الكهربائيّة. أسألُ عجوزاً تنتظر الباص عند ناصية الشّارع:

ـ عفوَكِ يا سيّدتي، ولكن أين أنتظر الحافلة الّتي تقلّني إلى المحطّة؟

تسألني:

ـ أيّ محطّة يا صغيري؟ هناك ثلاث منها.

ـ أقرب محطّة.

ـ إذاً، عليك أن تستقلّ الحافلة الرّقم ٥، ثمّ الباص الرّقم ٣.

twitter @baghdad_library

وسيشير عليك مفتّش التذاكر بالموقف الّذي ينبغي أن تبدّل فيه وسيلة النّقل.

أصل إلى محطّة واسعة الأرجاء مُكتظّة بالمسافرين. الناسُ فيها يتدافعون ويتراكضون ويطلقون الصرخات والشتائم. أقفُ في أحد الطوابير الطويلة أمام أحد شبابيك التذاكر. الطابور يتقدَّم ببطء. وعندما يحين دوري أخيراً أقول:

ـ تذكرة لمدينة س.

فتجيبني العاملة:

ـ إنّ قطار مدينة س. لا ينطلق من هنا. عليك أن تذهب إلى محطّة الجنوب.

أعود أدراجي لأستقلّ المزيد من الباصات والحافلات. وعندما وصلت إلى محطّة الجنوب كان اللّيل قد خيّم وتوقّفت حركة القطارات إلى مدينة س. حتّى صباح اليوم التالي. أدخلُ صالة الانتظار وأجد لي مكاناً شاغراً على أحد المقاعد. أرى الصالة مكتظّةً بالمنتظرين، ورائحة كريهة تنبعثُ من المكان ودخان الغلايين والسكائر يؤذي عينيَّ المتعبتين. أحاول أن أنام، ولكن ما إن أغمض عينيّ حتّى يُطالعني وجه سارة وحيدةً في غرفتها، سارة وحيدةً في المطبخ، سارة الّتي تبكي لأنّني لستُ هناك. تمكث بمفردها طوال اللّيل لأنّ أنطونيا مضطرّة للذهاب إلى عملها، وأنا، هنا، أجلسُ في صالة انتظار قبل الرّحيل إلى مدينة أخرى، إلى المدينة الّتي يقيم فيها أخي لوكاس.

أريد الذّهاب إلى المدينة الّتي يقيم فيها أخي، أريد أن أعثر عليه، وبعد ذلك سنذهب معاً للبحثِ عن أمّنا. غداً صباحاً سأرحلُ إلى مدينة س.، سأرحل.

لا أستطيع النّوم. أعثر في جيوبي على بطاقات تموين، ودون هذه البطاقات لن تحصل أنطونيا وسارة على ما تأكلانه.

يجب أن أعود أدراجي.

أركض. حذاء الرّياضة الّذي أنتعله لا يحدثُ جلبةً. وعند الصباح أجدني قرب منزلنا، أقف في طابور الخبز، ثمَّ طابور الحليب، وأعود إلى البيت.

أنطونيا جالسة في المطبخ، تضمّني إلى صدرها:

ـ أين كنتَ؟ لقد بكينا طَوال اللّيل، أنا وسارة. يجب ألاَّ تتركنا وحيدتين مرّة أخرى.

أقول:

ـ لن أترككما وحيدتين بعد الآن. لقد أحضرت الخبز والحليب. لقد أنفقت بعض النّقود لأنّني ذهبتُ إلى المحطّة ثمَّ إلى محطّة أخرى. كنتُ أريد الذّهاب إلى مدينة س.

تقول أنطونيا:

ـ سنذهب إلى هناك في أقرب وقت، معاً. وسنعثر على شقيقك.

أقول:

ـ وأودُّ أيضاً أن أرى أمّي.

بعد الظهيرة من يوم أحد، نقصد المصحّة العقليّة. تمكث أنطونيا وسارة في قاعة الاستقبال، أمَّا أنا فتقودني ممرّضة إلى غرفة استقبال صغيرة فيها بضع كنبات وطاولة. وخلف النّافذة إفريز صفَّت عليه أصص نباتٍ أخضر. أجلسُ هناك وأنتظر.

twitter @baghdad_library

تعود الممرّضة بعد هنيهة ممسكةً بذراعِ امرأة ترتدي فستان نوم وتعينها على الجلوسِ على إحدى الكنبات.

ـ قُلْ لأمّك صباح الخير، يا كلاوس.

أَحْدِجُ المرأة بنظرات متأنية. إنّها بدينة وعجوز. سُرِّح شعرُها الّذي غزا الشيب نصفه، إلى الخلف ورُبطَ في جديلةٍ عند مؤخِّر الرّأس بشريطٍ من الصوف. أرى جديلتها عندما تلْتَفِتُ وتحدِّق طويلاً في الباب الموصد. ثمَّ تسأل الممرّضة:

ـ لوكاس، أين هو؟

تجيب الممرّضة:

ـ لم يتمكَّن لوكاس من المجيء، ولكنَّ كلاوس هنا. قُل لأمّك صباح الخير يا كلاوس.

أقول:

ـ صباح الخير يا أمّاه.

تسألني:

ـ لِمَ جئتَ وحدك؟ لِمَ لم يأتِ لوكاس برفقتك؟

تقول الممرّضة:

ـ لوكاس سيأتي أيضاً، في أقرب وقت.

ـ ترمقني الوالدة بنظراتٍ جامدة ودموع غزيرة تنهمر من عينيها الشّاحبتَيِ الزّرقة. تقول:

ـ أكاذيب. دائماً أكاذيب.

يَسيلُ المخاط من منخريها. تمخطها الممّرضة بمنديل. تُطْرِقُ الوالدة وتبقي رأسها محنيّاً على صدرها؛ وتلزم الصمت وتكفّ عن مخاطبتي.

تقول الممرّضة:

ـ لقد تعبنا. لنذهبْ إلى السرير. هلاّ قبَّلت أمّك يا كلاوس؟

أهزُّ رأسي نفياً وأنهض.

تقول الممرّضة:

ـ أبإمكانك أن تعود بمفردك إلى غرفة الاستقبال؟

لا أجيب، وأغادر الغرفة. لا ألوي على شيء، أمرُّ بالقربِ من أنطونيا وسارة ولا أقولُ شيئاً، أغادر المبنى وأنتظر أمام الباب. تضع أنطونيا كفَّها على كتفي، وتمسكُ سارة بيدي، ولكنّي أبتعدُ عنهما وأضع يديّ في جيبيّ. نسيرُ معاً دون أن نتبادل كلمة واحدة إلى موقف الباص.

عند المساء، قبل أن تذهب أنطونيا إلى عملها، أقول لها:

ـ تلك المرأة الّتي قابلتها في المستشفى ليست أمّي. لن أراها بعد الآن. الأجدر بك أن تذهبي أنت لزيارتها، لكي تَرَي بأمّ عينيك ما جَنَتْهُ يداك.

تسأل:

ـ ألن تغفر لي يا كلاوس؟

لا أجيب. فتردف قائلةً:

ـ لو تدري كم أحبُّك.

أقول:

ـ يجب ألاَّ تفعلي. أنتِ لستِ أمّي، أمّي هي الّتي ينبغي أن تحبّني، ولكنّها لا تحبّ إلاَّ لوكاس، وكلُّ هذا بسببك أنتِ.

twitter @baghdad_library

أصداء القتال تقترب. وتتعرَّض المدينة للقصفِ ليلاً ونهاراً. نمضي معظم أوقاتنا في القبو. وكنَّا قد وضعنا فيه فُرُشاً وأغطية للنوم. وكان جيراننا يأتون إلى القبو في البداية، ولكنَّهم اختفوا ذات يوم. تقول أنطونيا إنّهم اعتقلوا ونقلوا إلى أحد معسكرات الاعتقال.

فقدت أنطونيا عملها. فالملهى الّذي تعمل فيه لم يعد موجوداً. وأقفلت أبواب المدرسة، وبات من الصعوبة بمكان الحصول على المواد الغذائيّة حتَّى بواسطة بطاقات التموين. ولكنْ لحسن حظِّنا أنَّ لأنطونيا صديقاً يأتي لزيارتنا أحياناً حاملاً معه الخبز والحليب المجفَّف والبسكويت والشوكولاته. وفي اللّيل يقضي الصديق ليلته عندنا لأنّه لا يستطيع أن يعود إلى بيته بسبب خطر التجوال. وفي اللّيالي الّتي يحلُّ فيها الصديق ضيفاً علينا تنام سارة بجواري في المطبخ. أُهدهدها وأُحادثها عن لوكاس الّذي سنلقاه قريباً، ونغفو معاً لفرط ما نراقبُ النجوم.

ذات صباح، توقظنا أنطونيا باكراً، وتشير علينا بارتداء ثياب مدفّئة، وبأن نرتدي عدداً من القمصان والكنزات بعضها فوق بعض، ثمَّ معاطفنا وبضعة أزواجٍ من الجوارب دفعة واحدة، لأنّنا سنذهب في رحلة طويلة. وتسارع إلى وضع ما تبقَّى من ملابسنا في حقيبتين.

يأتي صديق أنطونيا ليصحبنا في سيَّارة. نضع الحقائب في صندوقها ونصعد إليها، أنطونيا تجلس في المقعد الأمامي، أمَّا أنا وسارة فنحتلّ المقعد الخلفي.

نتوقّف أمام قبر عليه صليب من خشبٍ حُفِرَ عليه اسم شهرة والدي واسمه المركّب المؤلَّف من اسمي واسم شقيقي: كلاوس ـ لوكاس ت.

فوق القبر عدد من باقات الورد الذّابل، وباقة واحدة من القرنفل الأبيض غير الذابل.

أقول لأنطونيا:

ـ لقد كانت والدتي تزرع القرنفل في كافّة أرجاء الحديقة. إنّها الورود المفضّلة لدى أبي.

تقول أنطونيا:

ـ أعلم. هيّا ودّعا والدكما أيّها الوَلَدان.

تقول سارة بِدَعَةٍ:

ـ إلى اللّقاءِ يا أبي.

أقول:

ـ لم يكن والد سارة. كان فقط والدنا نحن، أنا ولوكاس.

تقول أنطونيا:

ـ لقد شرحت لك الأمر مراراً. ألم تفهم؟ لِيَكُنْ. هيّا، لا وقت نضيّعه.

نعود إلى السيّارة، فتنقلنا إلى محطّة الجنوب. تقول أنطونيا لصديقها شكراً وإلى اللّقاء.

نقف في الطابور أمام شبّاك التذاكر. وعندئذٍ فقط أجرؤ على سؤال أنطونيا:

ـ إلى أين نذهب؟

تقول:

twitter @baghdad_library

ـ إلى بيت أهلي. ولكن سنعرّج أوّلاً على مدينة س. لاصطحاب شقيقك لوكاس.

أمسك يدها وأقبّلها:

ـ شكراً لكِ يا أنطونيا.

فتقول بلهجةٍ صارمة:

ـ لا تشكرني. فأنا لا أعرف سوى اسم المدينة واسم مركز التأهيل، ولا شيءَ أكثر.

وحين تهمّ أنطونيا بدفع ثمن التذاكر أدرك أنّ النّقود الّتي كانت بحوزتي ذلك اليوم أقلّ من ثمن التذكرة إلى مدينة س.

الرّحلة شاقّة. أناسٌ كُثُرٌ في القطار. إنّهم ينزحون عن المناطق المجاورة لجبهةِ القتال. ولم نستطع أن نتدبّر سوى مقعد واحد لنا نحن الثّلاثة، والّذي يجلسُ منّا بالتناوب، يُجلِسُ سارة على ركبتيه، فيما يمكث الآخر واقفاً. تناوبنا على المقعد مراراً خلال الرّحلة الّتي لا تستغرق في العادة أكثر من خمس ساعات، لكنّها تستغرق هذه المرّة نحو اثنتي عشرة ساعة بسبب الإنذارات المتكرِّرة لتجنُّب الغارات الجويّة. يتوقّف القطار في مناطق سَهليّة من الرّيف فيهرع المسافرون إلى الحقول للاحتماء. ونحذو حَذْوَهم، وعندما نسمع صفَّارة الإنذار أهرع إلى الحقل وأبسط معطفي على الأرض وأمدِّد سارة فوقه وأنطبحُ فوقها لأحميها من الرّصاص والشّظايا والقذائف.

في ساعة متأخِّرة من اللّيل نصل إلى مدينة س.، فنقصد فندقاً ونحجز غرفةً فيه. نخلد أنا وسارة إلى النّوم مباشرةً، أمّا أنطونيا فتنزل إلى البار للاستعلام ولا تعود إلاّ في الصباح الباكر.

لقد حصلت على عنوان المركز حيث يقيم لوكاس، فنقصده على الفور.

إنّه مبنى في وسط حديقة. نصفه مدمّر. مقفر. ولا نرى في أرجائه إلاّ الجدران المتداعية الّتي التهمتها النيران واسودّت بفعل الدخان.

لقد قُصف المركز منذ ثلاثة أسابيع.

تقوم أنطونيا ببعض التحرّيات. تسأل السلطات المحليّة وتحاول أن تعثر على بعض الناجين من قصف المركز. تحصل على عنوان المديرة. نقصدها.

تقول:

ـ أذكر لوكاس الصغير جيّداً. لقد كان أسوأ نزيل لدينا. يشاكس الجميع. يزعج الجميع. إنّه ولد لا يُطاق بالفعل، لا يمكن إصلاحه. طوال فترة إقامته في المركز لم يأتِ أحد لزيارته، ولم يأتِ أحدٌ للسؤال عنه. وعلى ما أذكر فإنّه كان ضحيّة مأساة عائليّة. ولا أستطيع أن أقول لك أكثر.

تسأل أنطونيا بإلحاح:

ـ وهل رأيته مجدّداً بعد القصف؟

تقول المديرة:

ـ لقد أصبت أنا أيضاً أثناء القصف، ولكن لا أحد يُبالي بما يُصيبني. كثيرٌ من النّاس يأتون إليَّ ويطرحون عليَّ الأسئلة بشأن أولادهم. ولا أحد يُبالي بي. مع أنّي أمضيتُ أسبوعين طريحة الفراش في المستشفى بعد القصف. إنّها الصدمة، لابدَّ أنّك تدركين ذلك. لقد كنتُ المسؤولة عن هذا العدد الكبير من الأولاد.

تسأل أنطونيا مجدّداً:

twitter @baghdad_library

ـ هيّا ابذلي جهداً. ماذا بشأن لوكاس؟ هل رأيته مجدّداً بعد القصف؟ وماذا فعلتم بالأولاد الّذين نجوا؟

تقول المديرة:

ـ لم أره بعد القصف. قلت لك من قبل، لقد أصبت أنا أيضاً خلال القصف. لقد أُعيد مَنْ نجا من الأولاد إلى ذويه. ومن مات دُفِنَ في مقبرة المدينة. أمَّا من نجا ولا أهل له فقد تمَّ وضعه في رعاية أسرة ما. هكذا توزَّع الناجون على البلدات والمزارع والمدن الصغيرة. ولكن مَنْ تولّى رعاية أحد هؤلاء الأولاد، تعهَّد لنا بأن يعيده إلينا بعد انتهاء الحرب.

تدقّق أنطونيا في سجّلات الوَفَيات في المدينة.

وتقول لي:

ـ لوكاس لم يَمُت. سنعثر عليه.

نَستقلّ القطار مجدَّداً. نصلُ إلى محطّة صغيرة ونسلك الطريق المفضية إلى وسط المدينة سيراً على الأقدام. أنطونيا تحمل سارة بين ذراعيها، وأمّا أنا فأحمل الحقائب.

نتوقّف في ساحة «برنسيبال». تقرع أنطونيا جرس الباب، فتفتح امرأة عجوز. هذه العجوز أعرفها. إنّها والدة أنطونيا. تقول:

ـ المجدُ لله! أنتم بخير. كان خوفي عليكم كبيراً. ولم أكفَّ عن الصلاة لأجلكم.

تضمّ وجهي بين كفّيها وتقول:

ـ لقد جئت برفقتهما.

أقول:

ـ لم أستطع إلاّ أن أرافقهما. إذ ينبغي أن أعتني بسارة.

ـ بالطبع، يجب أن تعتني بسارة.

فتعانقني وتقبّلني، ثمَّ تحمل سارة بين ذراعيها:

ـ ما أجملك، كم أصبحتِ كبيرة.

تقول سارة:

ـ أشعر بالنعاس، أريد أن أنام إلى جانب كلاوس.

تقودنا إلى غرفة، غرفة أنطونيا حين كانت صغيرة، وأنام بجوار سارة.

سارة تنادي والديْ أنطونيا بجدَّتي وجدّي، أمّا أنا فأناديهما بالعمّة ماتيلدا والعمّ أندرياس. العم أندرياس قسٌّ ولم يُستدعَ إلى الجنديّة بسبب مرضه. ذلك أن رأسه يهتزّ باستمرار كأنّه لا يكفّ عن قول «لا».

أرافق العمّ أندرياس في نزهاتٍ طويلة في شوارع المدينة الصغيرة تستمرُّ أحياناً حتّى هبوط اللّيل. يقول:

ـ لطالما أردتُ أن أُرزق صبيّاً. لكانَ أدرك جيّداً كم أعشق هذه المدينة. ولأدركَ جمالَ شوارعها ومنازلها وسمائها. بلى، روعة هذه السّماء الّتي لا نجد مثيلاً لها في أيِّ مكانٍ آخر. انظر. ما من أسماءٍ يعرفها البشر لمثلِ هذه الألوان السماوية.

أقول:

ـ كأنّه حلم.

ـ إنّه حلم. بلى. لم أُرْزَق إلاّ بنتاً. رحلت عنّا باكراً. ثمَّ عادت

twitter @baghdad_library

إلينا وبرفقتها ابنة صغيرة وأنت. لست ابني ولست حفيدي، ولكنَّك الصبيّ الّذي كنتُ أنتظره.

أقول:

ـ ولكن يجب أن أعود إلى أمّي حين تشفى من مرضها، ويجب أن أعثر على شقيقي لوكاس.

ـ أجل. آمل أن تعثر عليهما. ولكنْ إن لم تعثر عليهما فبإمكانك أن تستقرَّ معنا نهائيّاً. بإمكانك أن تتابع دروسك وتختار المهنة الّتي تشاء. ماذا ترغب أن تكون عندما تصبح كبيراً.

ـ أريد أن أتزوّج سارة.

يضحك العمّ أندرياس:

ـ لا تستطيع أن تتزوّج سارة. أنتما أخٌ وأخت وزواجكما باطل ومستحيل. مثل هذا الزواج يحرِّمه القانون.

أقول:

ـ في مثل هذه الحال أكتفي بأن أقيم في بيتٍ واحد معها. ولا أحد يستطيع أن يحول دون ذلك أو أن يحرِّمه.

ـ سوف تلتقي فتياتٍ كثيرات فيما بعد، وسوف ترغب في الزواج منهنَّ.

أقول:

ـ لا أعتقد.

ثمَّ سرعان ما أصبح التَجْوال خطراً في الشوارع، وكان يُحظَّر في اللّيلِ مغادرة البيوت. فما العملُ خلال فتراتِ الإنذار والقصف؟ خلال ساعات النهار أنكبُّ على تدريس سارة. أعلِّمها القراءة والكتابة وأصحِّح لها تمارين الحساب. هناك كتب كثيرة في البيت، خصوصاً كتب الأطفال وكتب أنطونيا المدرسيّة.

ينكبّ العمّ أندرياس على تلقيني لعبة الشطرنج. وحين تخلد النّسوة إلى النوم، نبدأ بجولةٍ تستمرُّ في الأغلب حتَّى ساعةٍ متأخّرةٍ من اللّيل.

في البداية يُحالفُ الحظّ العمّ أندرياس، فيربح الجولة دائماً، وعندما يروح يخسر الجولةَ تلو الجولة يفقد حماسته للعب.

يقول لي:

ـ إنَّك تتفوّق عليَّ يا صغيري. فقدتُ حماستي للعب. فقدتُ حماستي لكلِّ شيء. رغباتي كلُّها تهجرني. حتَّى إنّي لا أرى أحلاماً ذات شأن، لا أرى سوى أحلام عاديّة.

أحاول تلقين سارة أصول لعبة الشطرنج، إلاَّ أنَّ اللّعبة لم تَرُق لها كثيراً. تتعب بسرعة وتبدي حنقها، وتفضّل عليها ألعابَ الزّوج والزّوجة والزوّار، الأبسط، علاوةً على سردِ القصص، مهما كانت، حتَّى لو اضطررت إلى قراءة قصّةٍ ما للمرّة العشرين.

twitter @baghdad_library

بعد أن ابتعدت الحرب وحلَّت في البلد الآخر، قالت أنطونيا:

ـ أصبح بإمكاننا الآن أن نعود إلى مدينتنا، إلى العاصمة.

تقول أمّها:

ـ سوف تموتون جوعاً هناك. دعي سارة هنا لبعض الوقت، على الأقل، ريثما تجدين عملاً وسكناً لائقاً.

يقول العمّ أندرياس:

ـ ليبقَ الصبيُّ أيضاً معنا. هناك مدارس جيّدة في مدينتنا. وعندما نعثر على شقيقه سنبقيه معنا هو أيضاً.

أقول:

ـ يجب أن أعود إلى العاصمة لأرى ماذا حلَّ بوالدتي.

تقول سارة:

ـ إذا كان كلاوس يريد العودة إلى العاصمة، فسأعود أنا أيضاً.

تقول أنطونيا:

ـ سأرحل الآن بمفردي. وما إن أجد سكناً ملائماً حتّى أعود لاصطحابكما.

تقبِّل سارة. ثمَّ تقبّلني. وتهمس في أذني:

ـ أعلم أنَّك ستعنى بها. إنّي أثق بك.

ترحل أنطونيا، أمَّا نحن فنمكث مع العمّة ماتيلدا والعمّ أندرياس. نعيش في ظروفٍ مثاليّة من النظافة والتغذية الجيّدة، ولكن يُحظّر علينا الخروج من المنزل بسبب الجنود الأجانب والفوضى الّتي تعمّ البلدة. فالعمّة ماتيلدا تخشى أن نتعرّض لمكروه.

أصبح لكلٍّ منّا غرفته الآن. سارة تنام في الغرفة الّتي كانت لوالدتها. أمّا أنا، فأنام في غرفة الضيوف.

عند المساء أضع كرسيّا خلف النّافذة وأستغرقُ في مراقبة السّاحة. إنّها شبه خالية. فقط بعض السكارى والعسكريّين يعبرونها على عجل. وأحياناً أرى صبيّاً، يصغرني سنّاً على ما يبدو لي، يعبر السّاحة وهو يَظْلَع. يعزف لحنَ هرمونيكا ويدخل إحدى الحانات، ثمَّ يغادرها ليدخل إلى حانةٍ أخرى. ونحو منتصف اللّيل، عندما تقفل الحانات جميعها، أرى الصبيَّ يبتعد نحو شرقِ المدينة عازفاً ألحان الهرمونيكا.

ذات مساء، أشير إلى الصبيّ صاحب الهرمونيكا وأسأل العمّ أندرياس:

ـ لِمَ لا يُحظَّر على هذا الصبيّ التجوال ليلاً في أنحاء المدينة؟

يقول العمّ أندرياس:

ـ إنّي أراه في الجوار منذ عام تقريباً. إنّه يُقيم في منزلِ جدّته عند طرفِ المدينة. إنّها امرأة فقيرة جدّاً. ولابدَّ أنّ الولد يتيم. لذلك اعتاد على العزف في الحانات لكَسْبِ بعض المال. واعتاد النّاس على صحبته. لن يسبِّب له أحدٌ أذىً. إنّه في حماية المدينة بأسرها، وفي حمى الله.

أقول:

ـ لابدَّ أنّه سعيد.

يقول العمّ:

ـ بالتأكيد.

بعد مضيّ ثلاثة أشهر تأتي أنطونيا لاصطحابنا. يحاول العمّ أندرياس والعمّة ماتيلدا أن يستبقيانا.

تقول العمّة:

twitter @baghdad_library

ـ دعي الصغيرة لبعض الوقت. إنّها سعيدة هنا ولا يُعوِزها شيءٌ.

ويقول العمّ أندرياس:

ـ على الأقلّ، ليبقَ الصبيّ، الآن وقد هدأت الأمور، بإمكاننا الشّروع في البحث عن شقيقه.

تقول أنطونيا:

ـ بإمكانك الشروع في البحث في غيابه، يا أبي. سأصطحبهما كليهما، فمكانهما هو معي.

أصبح لدينا شقّة كبيرة في العاصمة مؤلَّفة من أربع حجرات. فبالإضافة إلى غرفتَيِ النّوم هناك ردهة الاستقبال والحمّام.

ليلة وصولنا، أقرأ قصّة لسارة وأداعب شعرها إلى أن تغفو. ويتناهى إلى سمعي صوتا أنطونيا وصديقها يتحادثان في الردهة.

أنتعلُ حذاء الرّياضة؛ وأهبط السلَّمُ، وأهرعُ راكضاً عبر الشّوارع الّتي أعرفها جيّداً. الشّوارع والأزقّة والممرّات أصبحت مضاءةً الآن؛ لقد انتهت الحرب؛ وانتهى زمن التعتيم، وحظر التجوال.

أتوقّف أمام بيتي فأرى المطبخ مضاءً. في البداية يخطر ببالي أنَّ غرباء سَكَنوا البيت. تُضاءُ صالة الاستقبال أيضاً. إنّه فصل الصيف ولا حاجةُ لإغلاق النّوافذ، أدنو قليلاً. أسمع صوتَ رجلٍ يتكلّم. وبحذر أسترق النّظر عبر النّافذة. أرى أمّي جالسةً على كنبة تستمع إلى الرّاديو.

أذهبُ مراراً في اليوم، مدة أسبوع كامل، لأراقب حياة أمّي اليوميّة. تبدو منهمكةً في مشاغلها العاديّة متنقّلة بين الحجرات، إلاّ أنّها عندما تريد أن تجلس تختار المطبخ دائماً. إنّها تعتني أيضاً بالحديقة، تزرع وتسقي الورود. وفي المساء تقضي ساعات طويلة وهي تقرأ في غرفة الوالدين الّتي لها نافذة مُطلّة على الفِناء. مرَّةً واحدة كلَّ يومين تأتي ممرّضة على درّاجتها، وتمضي برفقتها نحو عشرين دقيقة، فتحادثها وتقيسُ ضغطَ دمها، وأحياناً تعالجها بحقنة.

ومرَّةً كلَّ يوم، تأتي في الصباح فتاة حاملةً سلَّةً مليئة بالحاجيات

twitter @baghdad_library

ثمَّ تعود أدراجها بسلّةٍ فارغة. في حين أواصلُ أنا شراء ما تحتاجه أنطونيا على الرغم من كونها قادرة على ذلك بنفسها، ولها صديق قادر على مساعدتها.

لقد أصبحت الوالدة هزيلة الجسم. ولا تبدو اليوم كامرأة عجوز مهملة المظهر كما رأيتها في المستشفى. لقد استعاد وجهها رقّةَ الأيام الخوالي، واستعاد شعرها لونه ولمعانه، وقد سرّحته في جديلة كثّةٍ صهباء، جمعتها عند مؤخّر الرّأس ملتفّة كالكعكة.

ذات صباح، سألتني سارة:

ـ إلى أين تذهب يا كلاوس؟ إلى أين تذهب كلَّ يوم؟ حتَّى في ساعات اللّيل. لقد جئتُ إلى غرفتك لأنّني رأيتُ حلماً مزعجاً ولم أجدك. وشعرتُ بالخوف الشديد.

ـ ولِمَ لا تقصدين غرفة أنطونيا عندما تشعرين بالخوف؟

ـ لا أريد أن أذهب إلى غرفة أنطونيا. بسبب صديقها الّذي يُمضي معظم اللّيالي في بيتنا. إلى أين تذهب يا كلاوس في كلِّ هذه الأوقات؟

ـ لا شيء. أتسكَّع. أتسكَّع في الشّوارع.

تقول سارة:

ـ تتسكَّع قُبالةَ المنزل المهجور. تذهبُ إلى حيث المنزل المهجور وتبكي، أليس كذلك؟ لِمَ لا تصحبني في نزهاتك كما كنت تفعل من قبل؟

أقول لها:

ـ لم يَعُد المنزل مهجوراً، يا سارة. لقد عادت أمّي إليه. لقد عادت إلى منزلنا وينبغي أن أعود، أنا أيضاً.

تجهش سارة بالبكاء:

ـ ستعود إلى أمّك؟ أتغادرنا؟ وماذا أفعلُ من دونك يا كلاوس؟

أقبّلها في عينيها:

ـ وأنا، ماذا أفعل من دونك يا سارة؟

نبكي معاً، ونتعانق مُمَدّدين على الكنبة العريضة في الصالة. نتعانق بقوّةٍ أكبر ويتشبّث أحدنا بالآخر ويلتصق به أكثر فأكثر بالذراعين، بالساقين. تسيلُ الدّموع على وجهينا وخَلَل شعرنا، على عنقينا، وفي أذنينا. يرتعد جسدانا من حُرقةِ البكاءِ، من الارتعاش، من لسع البرد.

أحسُّ بالبَلَلِ بين ساقي.

ـ ماذا تفعلان؟ ماذا يجري هنا؟

تفصلنا أنطونيا بحزم وتبعدنا الواحدُ عن الآخر؛ ثمَّ تجلسُ بيننا وتمسكُ بكتفي وتهزُّني بعنف:

ـ ماذا فعلت؟

أصرخ قائلاً:

ـ لم أُسبِّب لسارة أيّ أذى.

تحتضن أنطونيا سارة:

ـ يا إلَهي. كان ينبغي أن أعلم أنَّ مثل هذا الأمر قد يحدث.

تقول سارة:

ـ أعتقد أنّني بُلْتُ في سراويلي.

تعانقُ أمّها:

ـ أمّاه! أمّاه! سيعود كلاوس إلى أمّه.

تقول أنطونيا متلعثمة:

ـ ماذا؟ ماذا؟

twitter @baghdad_library

أقول:

ـ بلى يا أنطونيا، إنّ من واجبي أن أعود إليها.

تصرخ أنطونيا:

ـ لا!

ثمَّ تقول:

ـ بلى، يجب أن تعود إليها.

في صبيحة اليوم التالي، ترافقني أنطونيا وسارة فنتوقّف عند ناصية الشّارع، شارعي. تقبّلني أنطونيا وتعطيني مفتاحاً:

ـ هاكَ مفتاح الشقّة. بإمكانك أن تأتي متى شئت. سأحتفظ لكَ بغرفتك.

أقول:

ـ شكراً يا أنطونيا، سآتي لزيارتكما كلّما استطعت.

تمكث سارة صامتة. إنّها شاحبة الوجه، وعيناها معتكرتان. ساهمة تنظر إلى السّماء. سماء زرقاء صافية لصبيحةِ صيفٍ رائق. أمّا أنا فأحدّق في سارة، ابنة السّبعة أعوام، حبّي الأوّل. ولن يكون حُبٌّ آخر.

أقف قبالة البيت، في الجهة المقابلة من الشّارع. أضع حقيبتي على الأرض وأجلس عليها. أرى الفتاة تدخلُ حاملةً سلّتها، ثمَّ تغادر. أمكثُ جالساً لا أقوى على النهوض. عند الظهر، أشعر بالجوع وبدوار خفيف تصحبه أوجاع في المعدة.

بعد الظهر تصل الممرّضة على درّاجتها. أجتاز الشّارع راكضاً وبيدي حقيبتي، ألحقُ الممرّضة وأمسكُ ذراعها قبل أن تجتاز بوّابة الحديقة:

ـ سيّدتي، لو سمحت يا سيّدتي. لقد كنت أنتظر قدومك.

فتسألني:

ـ ما بك؟ هل أنت مريض؟

أقول:

ـ لا. إنّي خائف. خائف من دخول هذا البيت.

ـ ولِمَ تريد دخول البيت؟

ـ هنا، هنا بيتي، هنا أمّي. إنّي خائفٌ من أمّي، لم أرها منذ سبعة أعوام.

أقول ذلك مُتلعثماً مُرتعداً. فتقول الممرّضة:

ـ هيّا اهدأ قليلاً. لابدَّ أنّك كلاوس، أو لوكاس؟

ـ أنا كلاوس. لوكاس ليس هنا. ولا أدري أين أصبح. لا أحد يدري. ولهذا السبب أخاف من لقاءِ أمّي، وحدي، من دون لوكاس.

تقول:

ـ أجل، أدركُ حيرتك. حسناً فعلت إذ انتظرت قدومي. فوالدتك تظنُّ أنّها قتلت لوكاس. سندخل معاً. اتبعني.

تقرع الممرّضة جرس الباب، فتجيب أمّي من المطبخ قائلةً:

ـ ادخل، الباب مفتوح.

نجتاز الفيرندا ونتوقّف في صالة الاستقبال. تقول الممرّضة:

ـ عندي لك مفاجأة كبرى.

تقف أمّي عند باب المطبخ، تمسح يديها بمريلتها وتنظر إليَّ بعينين جاحظتين وتقولُ هامسةً:

twitter @baghdad_library

ـ لوكاس؟

تقول الممرّضة:

ـ لا، إنّه كلاوس. ولكنّ لوكاس سيعود بالتأكيد، هو أيضاً.

تقول الوالدة:

ـ لا. لوكاس لن يعود. لقد قتلته. لقد قتلت ابني الصغير، لن يعود أبداً.

تجلس الوالدة على إحدى كنبات الصالة وهي ترتعد. ترفع الممرّضة كمّ مبذلِ الوالدة وتعاجلها بحقنة. تمكث الوالدة مستسلمة لعناية الممرّضة الّتي تقول:

ـ لوكاس لم يمت. لقد نُقِلَ إلى مركزٍ لإعادة التأهيل، ألم أقل لك ذلك من قبل؟

أقول:

ـ بلى، إنّه مركز في مدينة س. وقد ذهبت للبحث عنه هناك، لقد دمّر المركز على أثر قصف عنيف، ولكنّي لم أعثر على اسم لوكاس في سجِّل الوَفَيات.

تسألُ الوالدة بصوتٍ خفيض:

ـ ألا تكذب عليَّ يا كلاوس؟

ـ لا يا أمّي، لا أكذب عليك.

تقول الممرّضة:

ـ المؤكّد أنّك لم تقتليه.

تستعيد الوالدة هدوءها. تقول:

ـ يجب أن نذهب إلى هناك. مَنْ اصطحبك إلى هناك يا كلاوس؟

ـ ذهبتُ برفقة سيِّدةٍ من الميتم. لقد اصطحبتني إلى هناك. كان لها أقارب بجوار مدينة س.

تقول الوالدة:

ـ ميتم؟ لقد قيل لي إنّهم وضعوك في رعاية عائلة. عائلة تُعنى بك جيّداً. يجب أن تعطيني عنوان هؤلاء النّاس لأشكرهم على ما فعلوه.

تعاودني اللّعثمة فأقول:

ـ لا أذكر عنوانهم. لأنّي لم أُطِل الإقامة بينهم. ذلك، ذلك لأنّهم اعتقلوا ونقلوا إلى معسكر اعتقال. بعد ذلك ذهبت إلى الميتم. وكنت سعيداً هناك، وكان الجميع من حولي مثالاً للطف والطيبة.

تقول الممرّضة:

ـ يجب أن أغادركما الآن. لديّ أعمال كثيرة. هلاّ رافقتني إلى الباب يا كلاوس؟

أرافقها إلى بوّابة الحديقة. فتسألني:

ـ أين أمضيت هذه السنوات السَبْع يا كلاوس؟

أقول لها:

ـ لقد سَمعتِ ما قلته لأمّي.

تقول:

ـ بلى، سمعتُ. لكنَّ ما سمعته ليس الحقيقة. أنتَ لا تجيد الكذب يا صغيري. لقد بحثنا عنك في كافّة المياتم ولم نجدك. ثمَّ كيف استطعت أن تعثر على البيت؟ كيف علمت أنَّ أمّك قد عادت إليه؟

ألزم الصمت. فتقول:

ـ لكَ الحقّ في كتمان سرِّك. ولابدَّ أنّ ثمّة أسباباً وجيهة ترغمك على الكتمان. ولكن اعلم أنّني أُعنى بأمّك منذ أعوامٍ طويلة. وكلّما ازددتُ معرفةً بخفايا حياتها تضاعفت قدرتي على مساعدتها في

twitter @baghdad_library

الشّفاء. وها أنت تصل فجأة حاملاً حقيبتك، لذلك أحسب أنَّ لي الحقّ في أن أسألك أين أمضيت كلَّ الأعوام المنصرمة.

أقول:

ـ لا، لا يحقّ لك سؤالي. هاأنذا هنا وهذا كلّ ما في الأمر. ولكن أخبريني، كيف ينبغي أن أعاملها؟

تقول:

ـ افعل ما تراه ملائماً. وحاول أن تكون صبوراً قدر المستطاع. وإذا أصابتها أزمة مفاجئة فاتّصل بي هاتفيّاً.

ـ أزمة؟ ماذا تقصدين؟

ـ لا تخف. ما رأيته اليوم يُعتبر من أسوأ أزماتها. تصرخ وترتعد ثمَّ تهدأ. خُذْ، هذا رقم هاتفي. إذا واجهت صعوبات فاتصل بي.

أمّي تغفو على إحدى كنبات الصالة. أحملُ حقيبتي إلى غرفة الأولاد عند طرفِ الرّواق. أرى السريرين على حالهما، السريرين الكبيرين اللّذين اشتراهما والدانا مباشرة قبل حدوث «الأمر». لم أجد بعد العبارة لوصف ما جرى لنا. بإمكاني أن أقول كارثة، مأساة، مُصيبة؛ وأمّا في ذهني فأسمّيه ببساطة «الأمر» الّذي لا توجد كلمة للدلالة عليه.

غرفة الأولاد نظيفة، والسريران أيضاً. فمن الواضح جدّاً أنَّ الوالدة كانت تنتظر عودتنا. غير أنَّ ما تنتظره بلهفةٍ أكبر هو عودة شقيقي لوكاس.

فيما نحن نتناول طعامنا في المطبخ صامتين، تقول الوالدة فجأة:

ـ لست نادمة على الإطلاق لأنّي قتلت والدك. ولو كنتُ أعرف من هي المرأة الّتي أراد هجرنا من أجلها لقتلتها هي أيضاً. وإنْ كنتُ قد أصبتُ لوكاس بالرصاص فهي المذنبة، هي وحدها المذنبة لا أنا.

أقول:

ـ لا تعذِّبي نفسَك يا أمّاه. إنّ إصابة لوكاس لم تقتله، وسوف يعود.

تسأل الوالدة:

ـ وكيف له أن يهتدي إلى البيت؟

أقول:

ـ مِثْي، مادمتُ قد اهتديتُ ـ أنا ـ إليه، فسيهتدي هو إليه أيضاً.

تقول الوالدة:

ـ صَدَقْتَ. ولكنْ يتوجَّب علينا أن لا نرحل عن هذا المكان، لأنّه سيبحث عنّا هنا.

الوالدة تتناول أقراصاً منوِّمة لكي تتمكّن من النوم، وتخلد إلى الفراش باكراً جداً. خلال ساعات اللّيل أذهب لتفقّدها في غرفتها. إنّها تنام مُستلقيةً على ظهرها، على طرفِ السرير الكبير وقد أدارت وجهها نحو النّافذة فاسحةً في المجال لمكانٍ شاغرٍ كان ينام فيه زوجها.

أغفو لبعض الوقت. وأمضي ساعات اللّيل المتبقية مستغرقاً في

twitter @baghdad_library

تأمُّلِ النجوم ومستغرقاً، على جاري عادتي كلَّ ليلة، في التفكير. حين كنتُ لا أزال أقيم في بيتِ أنطونيا كانت ذكرى عائلتي وبيتي لا تفارق عينيَّ، وكذلك الأمر هنا، لا تفارق عينيَّ ذكرى سارة وأمّها وجدّيها في مدينة ك.

أستيقظ فأرى أغصان شجرة الجوز تلامس النّافذة. أهرعُ إلى المطبخ، أقبّلُ أمّي فتبتسم لي. لقد أعدَّت القهوة والشّاي. ثمَّ تأتينا الفتاة بخبز طازج. فأقول لها أَنْ لا حاجة لمجيئها من الآن فصاعداً، لأنّني سأُعنى بتأمين احتياجات البيت بنفسي.

تقول أمّي:

ـ لا يا ڤيرونيك. يجب أن تأتي كالمعتاد. فكلاوس مازال صغيراً جدّاً للقيام بمثل هذه الأمور.

تضحك ڤيرونيك:

ـ ليس صغيراً إلى هذا الحدّ. ولكنّه لن يجد في الحوانيت على كلّ حال ما يحتاجه. فالحقيقة أنّني أعمل في مطبخ المستشفى، وهناك أجدُ ما أحضره لكما كلَّ يوم، أَوَتدرك الآن يا كلاوس ماذا أقصد؟ لقد كنتَ مدلَّلاً في الميتم حيث الطعام متوافر بكثرة. أمّا هنا، في المدينة، فلن تصدِّق مقدار المشقّة الّتي تتكبّدها لتوفير الطعام. فقد يمضي الواحد منّا عمره كلّه في الصفوف الطويلة أمام المحالّ.

بين الوالدة وڤيرونيك مقدار كبير من المودّة. إنّهما تتضاحكان وتتعانقان. وتسترسل ڤيرونيك في سردِ حكايات غرامها، حكايات بلهاء: «عندئذٍ قال لي، عندئذٍ قلت له، وعندها حاول أن يقبّلني».

تساعدُ ڤيرونيك الوالدة على صباغة شعرها. إنّهما تستعملان

صباغاً يُسمّى «الحنّاء» لكي يُعيد لشعر والدتي لونَه الفتيّ. كما تُعنى ڤيرونيك بنضارة وجه أمّي. فتغطّيه بالمساحيق ثمَّ تزيّنه مستخدمةً فراشي صغيرة وأنابيب وأقلاماً.

تقول الوالدة:

ـ يجب أن يكون مظهري لائقاً عندما يعود لوكاس. لا أريد أن يراني مهملة المظهر وعجوزاً ودميمة. أتدركُ ما أَقْصدُ يا كلاوس؟

أقول:

ـ أجل يا أمّاه. لكنَّ مظهرك يكون لائقاً أيضاً بشعرك الرّمادي ووجهٍ نظيف بلا مساحيق.

تصفعني أمّي:

ـ هيّا اذهب إلى غرفتك يا كلاوس، أو اذهب للنزهةِ خارج البيت. إنَّك تثيرُ أعصابي.

وتخاطب ڤيرونيك قائلة:

ـ لِمَ لَمْ أُرزقْ بنتاً مثلك؟

أغادر حانقاً، أتسكّع في نواحي بيت أنطونيا وسارة ثمَّ أعرِّجُ على المدافن باحثاً عن قبر أبي. لم أطأ المدافن من قبل إلاَّ مرّة واحدة برفقة أنطونيا، وأرى أنّها تمتدّ على مساحة شاسعة.

أعودُ إلى البيت وأحاول أن أُعين الوالدة على أعمال البستنة، لكنَّها تقول لي:

ـ انصرف للعب. خذ الدُّرَيِّجة أو الدرّاجة ذات العجلات الثّلاث والعب بها.

أرمق الوالدة بنظرةِ استجهان:

ـ ألا تدركين أنّها لُعَب لأطفالٍ في الرّابعة من عمرهم.

تقول:

twitter @baghdad_library

ـ هناك الأراجيح أيضاً.

ـ ولا أحبّ الأراجيح أيضاً.

أهرعُ إلى المطبخ فأستلُّ سكيناً وأقطع الحبال، حبال الأرجوحة الأربعة.

تقول الوالدة:

ـ حبّذا لو أبقيت على إحدى الأرجوحتين على الأقلّ. لوكاس يحبّ الأراجيح. إنّك ولدٌ مزاجي وصعب المراس يا كلاوس. لا بل ولدٌ لئيم.

أصعد إلى غرفة الأولاد فأكتبُ شِعْراً وأنا مُسْتَلْقٍ على سريري.

يحدث أن تنادينا الوالدة عند المساء:

ـ لوكاس، كلاوس، حان وقت الطعام.

فأدخل إلى المطبخ. فترمقني أمّي وتُعيدُ إلى الخزانة الطبق الثّالث الّذي أعدّته للوكاس؛ أو أنّها ترمي الطبق في المجلى، فينكسر بالطبع؛ بل قد تعمد أحياناً إلى سكب الطعام في طبق لوكاس وكأنّه موجودٌ بيننا.

ويحدث أيضاً أن تأتي الوالدة إلى غرفة الأولاد عند منتصف اللّيل. فتربِّتُ على وسادة لوكاس وتخاطبه:

ـ نمْ جيّداً. ولتكن أحلامك سعيدة. إلى الغد.

وبعد ذلك تغادر الغرفة؛ ولكنْ يحدثُ أيضاً أن تمكث هناك لوقتٍ

أطول، جاثيةً قربَ السرير، ورأسها على وسادة لوكاس. وتغفو.

ألزمُ سريري بلا حراك، وأحاول أن يكون تنفّسي بطيئاً لكي لا أحدث جَلَبةً مهما كانت خفيضة؛ وعندما أستيقظ في صباح اليوم التالي، لا أجدُ الوالدة قرب السرير. فأتحسَّس الوسادة فوق السرير الآخر فأجدها لاتزالُ رطبةً من دموع أمّي.

مهما أفعل فإنَّ ما أفعله لا يكون جيّداً قطّ في نظر أمّي. فإنْ سقطت حبّة أرزّ من صحني قالت:

ـ لن تتعلّم أبداً آداب المائدة. انظر أخاك لوكاس، ألا ترى كيف يُعنى بنظافة غطاء الطاولة.

وإن أمضيتُ نهاري في نزعِ الأعشاب البرّيّة من الحديقة، ورأت ثيابي ملطّخةً بالوحلِ قالت:

ـ لقد اتّسختَ مثل خنزير. لو كان لوكاس مكانك لفعل ذلك بشكل نظيف.

وعندما تتلقّى الوالدة راتبها، راتبها الضئيل، من الدّولة، تذهب إلى السوق وتعود بلُعَبٍ باهظة الثّمن لا تلبث أن تخفيها تحت سرير لوكاس. وتحذّرني:

ـ لا تلمس هذه اللُّعَب. يجب أن تبقى في علبها إلى أن يعود لوكاس.

أصبحتُ أعرف الآن أنواع الدّواء الّتي يجب أن تتناولها الوالدة.

لقد شرحت لي الممرّضة كلَّ شيء.

وهكذا فإنّني، حين تعاند أو تنسى دواءها، أضعه في قهوتها أو شايها أو حسائها.

twitter @baghdad_library

في شهر أيلول (سبتمبر)، أعودُ إلى مقاعد الدراسة. إنّها المدرسة الّتي اعتدتُ أن أذهب إليها قبل الحرب. وكان من المفترض أن ألتقي فيها سارة. لكنّني لم أجدها.

بعد انتهاء الدّروس، أقصد منزل أنطونيا وأقرع جرس الباب. لا جواب. أفتح الباب بمفتاحي. لا أحد. أهرع إلى غرفة سارة، أفتح الأدراج والخزانة، لا أثر لدفتر، لا أثر لقطعة ثياب.

أغادر المنزل، وأرمي المفتاح تحت عجلات حافلة مُسرعة، وأعودُ إلى بيت أمّي.

في أواخر أيلول (سبتمبر) ألتقي أنطونيا في المدافن. لقد اهتديت أخيراً إلى القبر. أحملُ باقة من القرنفل الأبيض، أزهار أبي المفضّلة. أرى باقةً أخرى وُضِعَتْ فوق القبر. فأضع باقتي بقربها.

فإذا بأنطونيا الّتي لا أعرفُ من أين ظهرت، تسألني:

ـ هل أتيت إلى منزلنا؟

ـ أجل. وجدتُ غرفة سارة فارغة. أين هي؟

تقول أنطونيا:

ـ إنّها تُقيم الآن مع جدّيها. يجب أن تنساك. كنتَ ماثلاً على الدّوام أمام عينيها وتريد أن تراك. أن تذهب إليك أينما كنتَ، في بيتِ والدتك أو أيّ مكان آخر.

أقول:

ـ أنا أيضاً لا أكفُّ عن التفكير فيها. لا أستطيع العيش من دونها، أريد أن أحيا معها، أينما كان، وكيفما كان.

تعانقني أنطونيا:

ـ أنتما أخ وأخت، لا تنسَ يا كلاوس. ولا يجوز أن تتحابّا كما فعلتما. كان الأجدر بي ألاّ أصحبك للعيش معنا.

أقول:

ـ أخ وأخت. وما الفرق؟ لن يعلم أحد. إنّنا نحمل اسميْ شهرةٍ مختلفين.

ـ لا تكن ملحاحاً يا كلاوس، أرجوك. عليك أن تنسى سارة.

أمكث صامتاً. فتردف أنطونيا قائلةً:

ـ سأرزق مولوداً. لقد تزوَّجت من رجل آخر.

أقول:

ـ إذا كنت تحبين رجلاً آخر، وأصبحت لك حياة أخرى، فلِمَ إصرارك على المجيء لزيارة قبره؟

ـ لا أدري. ربّما من أجلك أنت. لقد كنتَ ابناً لي طوال سبعة أعوام.

أقول:

ـ لا، لم أكن ابنك للحظة واحدة. لي أمٌّ واحدة، هي الأمّ الّتي أحيا معها الآن، الأمّ الّتي تسبّبتِ بجنونها. لقد كنتِ السّبب في فقداني أبي وأخي، وها أنتِ الآن تتسبّبين بفقداني أختي الصغيرة.

تقول أنطونيا:

ـ صدِّق يا كلاوس أنّني آسفة لكلِّ ما جرى. لم أُرِد ذلك. وما كان في استطاعتي أن أعلم مُسبقاً بما سيترتَّب عليه. لقد أحببت والدك بصدق.

أقول:

twitter @baghdad_library

ـ إذاً ينبغي أن تتفهّمي حبّي لسارة.

ـ إنّه حبٌّ مستحيل.

ـ وحبُّكِ كان مستحيلاً أيضاً. ما كان عليك إلاّ أن تبتعدي وتنسي أبي قبل وقوع «الأمر». لا أريد أن أراكِ هنا مرّة أخرى يا أنطونيا. لا أريد أن أراكِ بعد الآن أمام قبر أبي.

تقول أنطونيا:

ـ حسناً لن تراني هنا بعد الآن. ولكنّي لن أنساكَ أبداً يا كلاوس.

أمّي لا تملك الكثير من المال. تمنحها الدّولة مبلغاً ضيئلاً من المال في نهاية كلّ شهر لأنّها تُعتبر عاجزة بسبب مرضها. وإقامتي معها تعتبر عبئاً إضافيّاً عليها. يجب أن أتدبّر لي عملاً بأسرع وقت ممكن. وتقترح ڤيرونيك أن أعمل كموزِّع صحف.

هكذا أنهضُ عند الرّابعة فجراً وأذهبُ إلى المطبعة حَيْثُ أحظى بالرزمةِ المخصَّصةِ لي من الصحف، فأطوف في الشّوارع المخصّصة لي أيضاً وأضعُ نُسَخَ الصحيفة أمام الأبواب أو في صناديق البريد أو أدسّها تحت أبواب الحوانيت الحديديّة الجرّارة.

عندما أعودُ تكون الوالدة مستغرقةً في نومها. فهي لا تنهض عادةً قبل التّاسعة. أُعِدُّ القهوة والشّاي، ثمَّ أذهبُ إلى المدرسة حيث أتناول أيضاً طعام الغداء. ولا أعود إلى البيت قبل الخامسة مساءً.

أصبحت الممرّضة تباعِدُ بين مواعيد زياراتها. وتقول لي إنَّ أمّي

قد شُفيت، وأنّها ما عادت تحتاج الدّواءَ باستثناء بعض الأقراص المهدِّئة والمنوِّمة.

وڤيرونيك أيضاً أصبحت تطيل غيبتها. ولا تأتي لزيارة الوالدة إلاّ لتقصَّ عليها حكايات زواجها الفاشل.

في الرّابعة عشرة أهجر المدرسة وأعمل كعامل طباعة متمرِّن في مطبعة الصحيفة الّتي عملتُ فيها كموزِّع اشتراكات لمدة ثلاثة أشهر.

غسبار، رئيس القسم، يدعوني دائماً لمشاركته طعام العشاء. ذلك أنّ الوالدة لا تفكّر في إعداد زوّادة ليليّة لي، بل لا تفكّر في طلب الفحم لموسم الشتاء. إنّها لا تفكّر في شيء، إلاّ في لوكاس.

في السّابعة عشرة أصبحُ عاملَ طباعة محترفاً. وأجني من ذلك مبالغ لابأس بها من المال قياساً إلى مهنٍ أخرى. وهكذا يصبح بإمكاني أن أصحب والدتي، مرّةً في الشهر، إلى أحد صالونات التجميل حيث تصبغ شعرها وتصفِّفه ويعمل أخصائيّو التجميل على «العناية» بوجهها ويديها. فهي لا تريد أن يعود لوكاس ويجدها قد أصبحت عجوزاً ودميمة.

لا تكفّ الوالدة عن تأنيبي لأنّني هجرت دراستي:

ـ لوكاس كان تابع دراسته، وأصبح طبيباً؛ طبيباً عظيماً.

وعندما تتسرَّب مياه الشتاء من سقف منزلنا المتداعي، تقول الوالدة:

ـ لوكاس كان أصبح مهندساً معماريّاً؛ مهندساً بارعاً.

وعندما أطلعها على قصائدي الأولى، تقرأ الوالدة وتقول:

ـ لوكاس كان أصبح كاتباً، كاتباً كبيراً.

twitter @baghdad_library

لذلك فإنّي أكفّ عن إطلاعها على قصائدي، أكتبها وأخفيها عنها.

هدير الآلات يساعدني على الكتابة. يضفي إيقاعه على عباراتي ويوقظ الصورَ في مخيّلتي. وعندما أُنجزُ صَفَّ صفحات الجريدة، في ساعةٍ متأخّرة من اللّيل؛ أبدأ بصفِّ وطباعة نصوصي الخاصّة الّتي أوقّعها باسم «كلاوس لوكاس» وهو اسم مُستعار اخترته إحياءً لذكرى أخي الميت أو المفقود.

ما ننشره في الجريدة لا يمتُّ إلى الواقع بصلة. نطبع كلَّ يوم عبارة تتكرّر مئات المرّات: «نحن أحرار»، ولكنْ أينما ذهبنا نرَ في الشّوارع جنودَ جيش أجنبي، والجميع يعلم أنَّ هناك معتقلين سياسيّين وأنَّ السّفر إلى الخارج مُحظَّر، وحتَّى داخل البلاد لا يستطيع المرء أن يتنقّل بحرّيّة بين المدن. أعرف ذلك لأنّني حاولت ذات يوم أن أذهب إلى مدينة ك.، لأرى سارة، فوصلت إلى مدينةٍ مجاورة تمَّ فيها القبض عليّ وأُعِدتُ إلى العاصمة بعد ليلة طويلة من الاستجواب.

نطبع مئة مرّة في اليوم عبارة: «إنّنا نعيش في ظلّ البحبوحة ورغد العيش»، فتراودني للوهلةِ الأولى فكرة أنَّ هذا الأمر صحيح وينطبق على واقع حال الآخرين، وأنّنا، أنا وأمّي، بائسان وتَعِسان بسبب «الشيء»، ولكنَّ غسبار يقول لي إنَّ حالنا، أنا وأمّي، ليست حالاً استثنائيّة وأنّه، هو نفسه، وزوجته وأولاده الثلاثة يحيون في حالٍ من البؤس لم يعرفها من قبل.

ثمَّ إنّني حين أكون عائداً من العمل، عند الصّباح الباكر، وألتقي أناساً يهرعون بدورهم إلى أعمالهم، لا ألمح في قسمات وجوههم أيَّ ملمحٍ للسعادة، أو للبحبوحة. وعندما أسأل لِمَ يتوجَّب علينا أن نطبع كلَّ هذه الأكاذيب، يجيبني غسبار:

ـ إيّاك أن تطرح مثل هذه الأسئلة. قم بعملك ودَعْكَ من أيّ شيء آخر.

ذات صباح أرى سارة تنتظرني أمام المطبعة. أمرُّ بقربها ولا أعرفها. ولا ألتفت إلاَّ حين أسمع من يناديني باسمي:

ـ كلاوس!

نتبادل النظرات. أشعر بأنَّني متعبٌ، وسخ وغير حليق الذّقن. أمّا سارة فجميلة وعذبة وأنيقة. لقد أصبحتْ في الثامنة عشرة. وتبادر هي إلى الكلام:

ـ ألا تقبّلني يا كلاوس؟

أقول:

ـ اعذريني، ولكنَّني أشعرُ بأنَّني وسخ.

تقبّلني على خدّيّ، أسألها:

ـ كيف علمتِ أنَّني أعمل هنا؟

ـ لقد سألت أمّك.

ـ أمّي؟ ذهبتِ إلى بيتنا؟

ـ أجل، مساء أمس. فور وصولي. لكنَّك كنت قد غادرت.

أسحب منديلي وأمسح وجهي الذي يتصبَّب عرقاً:

ـ وهل أخبرتها مَنْ أنتِ؟

ـ قلت لها إنّني صديقة الطفولة. وسألتني: «مِنَ الميتم؟»، قلت لها: «لا، من المدرسة».

twitter @baghdad_library

ـ وماذا عن أنطونيا؟ هل تعلمُ أنَّكِ هنا؟

ـ لا، إنَّها لا تعلم. قلت لها إنّني سأقصد الجامعة لاستكمال إجراءات الانتساب والتسجيل.

ـ في السّادسة صباحاً؟

تضحك سارة:

ـ مازالت نائمة. ثمَّ إنّني سأقصد الجامعة بالفعل، ولكن ليس الآن. لدينا متّسع من الوقت لاحتساء كوبِ قهوة في مكانٍ ما.

أقول:

ـ أشعر بالنّعاس.، إنّني مُتعب. وينبغي أن أُعدّ طعام الفطور لوالدتي.

تقول:

ـ لا يبدو أنَّك سُررتَ برؤيتي مجدّداً يا كلاوس.

ـ كيف تقولين هذا يا سارة! كيف حال جدّيكِ؟

ـ بخير. لكنَّهما أصبحا عجوزين. حاولت أمّي أن تأتي بهما هما أيضاً إلاَّ أنَّ جدّي يرفض مغادرة مدينته الصّغيرة. بإمكاننا أن نلتقي دائماً، إذا شئت.

ـ في أيّ كلّيّة ستتابعين دراستك؟

ـ أودّ أن أدرس الطبّ. والآن وقد عدتُ بإمكاننا أن نلتقي كلَّ يوم يا كلاوس.

ـ لابدّ أنَّه قد أصبح لك أخٌ أو أخت. عندما التقيت أنطونيا آخر مرّة كانت حاملاً.

ـ أجل، لي أختان وأخ صغير. ولكنّي أريد أن نتحدَّث عنّي وعَنْك يا كلاوس.

أسألها:

ـ ما هي مهنة زوج أمّك لكي يقوم بأعباء مثل هذه الأسرة الكبيرة؟

ـ إنّه في قيادة الحزب. يبدو لي أنّك تتعمَّد الحديث عن أمور أخرى، أليس كذلك؟

ـ بلى، أتعمَّد ذلك. فما جدوى أن أتحدَّث عَنْك أو عنّي. ليس هناك ما يمكن قوله بشأننا كليْنا.

تقول سارة بصوتٍ خفيض:

ـ أنسيت كم كنَّا متحابّيْن؟ لم أنْسَكَ يا كلاوس.

ـ وأنا أيضاً. ولكنْ لا أرى أيّ جدوى في أن نلتقي ثانية. أما أدركتِ حقيقة الأمر بعدُ؟

ـ بلى. لقد أدركتها للتوّ.

وتشير إلى سيّارة أجرة عابرة وتغادر.

أمّا أنا فأسير إلى موقف الباص، وأنتظر هناك عشر دقائق، وأستقلّ الباص على جاري عادتي كلّ صباح، الباص المزدحمِ العابقِ بالروائح النتنة.

عندما أصل إلى البيت، أجد أمّي مُستيقظةً خلافَ عادتها. تحتسي القهوة في المطبخ. وتبتسمُ لي قائلةً:

ـ إنّها جميلة، صديقتك سارة. ما اسمها؟ سارة ماذا؟ ما اسم عائلتها؟

أقول:

ـ لا أدري يا أمّي. ليست صديقتي. لم أرها منذ أعوم طويلة. كلُّ ما في الأمر أنّها عادت لتبحث عن بعض رفاق صفّها فقط.

تقول الوالدة:

ـ فقط؟ يا للخسارة. لقد آنَ الأوان لكي تكون لك صديقة ما.

twitter @baghdad_library

ولكنَّكَ من النّوعِ الأخرق الذي لا يروقُ للفتيات، خصوصاً بنات العائلات المحترمَة. والأسوأ من ذلك مهنتك اليدويّة. لو كان لوكاس لكانت الأمور مختلفة. بلى، إنَّ سارة هذه من طراز الفتيات اللّواتي يَلِقْنَ بلوكاس.

أقول:

ـ بالتأكيد، يا أمّاه. أرجو المعذرة، أشعر بحاجة للنّوم.

أستلقي فوق سريري وقبل أن أغفو أحادثُ لوكاس في خَلَدي، كما اعتدتُ أن أفعل طَوال السنوات المنصرمة. وما أقوله له لا يختلف كثيراً عمّا أقوله عادةً. أقول له إنَّه إذا كان ميتاً فهو محظوظ وكم أودُّ أن أكونَ ميتاً بدلاً منه. وأقول له إنَّه حَظِيَ بما هو أفضل، أمّا أنا فعليَّ أن أكابد العبءَ الثقيل. أقول له إنَّ الحياة لا رجاء منها، وأنَّها اللّامعنى المحض، الضلال، الألم الذي لا ينتهي، وأنها اختراع لا ـ إلَه يُجاوز خبثُه حدّ المعقول.

سارة، لم أرَها منذ ذلك اليوم. أحياناً يُخيَّل إليَّ أنّي ألمحها في الشارع، ولكنَّها ما كانت لتكون يوماً هي إيّاها.

ذات يوم أعبر الشّارع أمام البيت الذي كانت تقيم فيه أنطونيا من قبل، ولكنّي لا أعثر على أيّ اسم مألوف على صناديقِ البريد، وعلى كلّ حال فأنا أجهل اسم أنطونيا الجديد.

بعد ذلك بسنوات، أتلقَّى دعوةً لحضور زفاف. سارة ستتزوّج من طبيب جرّاح، ويشيرُ عنوان الأسرتين إلى أنَّهما يقطنان أكثر أحياء المدينة ثراءً وأناقة، ويُدعى «رابية الورود».

ستكون لي صداقات عابرة كثيرة مع الفتيات. فتيات ألتقيهنّ في المقاصف المجاورة للمطبعة، المقاصف التي اعتدت أن أرتادها قبل ساعات العمل وبعدها. فتيات عاملات أو مجرَّد نادلات، ويندر أن ألتقي إحداهنَّ أكثر من مرّةٍ واحدة، وبالطّبع لا أصطحب أيّاً منهنّ إلى المنزل لكي أعرّفها بالوالدة.

أمضي بعد ظهر الآحاد برفقة غسبار وعائلته. في منزله حيث نلعب الورق ونحتسي البيرة. لغسبار ثلاثة أولاد. الكبرى تُدعى إستير تشاركنا اللّعب، وهي في مثل سنّي تقريباً وتعمل في معمل للنسيج منذ كانت في الثالثة عشرة. أمّا الصبيّان، وهما أصغر سنّاً، فيعملان في مطبعة أيضاً، ويخرجان بعد ظهر الأحد لمشاهدة مباريات الكرة، أو السّينما، أو للنزهةِ في شوارع المدينة. آنّا، زوجة غسبار، نسّاجة مثل ابنتها، تغسل الأواني والثياب وتُعِدَّ طعام

twitter @baghdad_library

العشاء. إستير شعرها أشقر وعيناها زرقاوان، ووجهها يشبه وجه سارة، لكنَّها ليست سارة، ليست أختي، ليست حياتي.

يقول لي غسبار:

ـ ابنتي تحبُّك. تزوّجها. أزوّجك ابنتي. أنت الرّجل الوحيد الذي يستحقّها.

أقول:

ـ لا أريد أن أتزوَّج يا غسبار. يجب أن أعتني بأمّي وأن أنتظر عودة لوكاس.

يقول غسبار:

ـ تنتظر عودة لوكاس؟ يا لكَ من معتوهٍ بائس.

ويردف قائلاً:

ـ إذا كنت لا ترغب في الزواج من إستير، فحريّ بك أن لا تزورنا مجدّداً.

بتُّ لا أزور غسبار، وأمضي كلَّ أوقاتي بعد العمل في المنزل، وحدي برفقةِ الوالدة، إلاَّ في السّاعات التي أسيرُ فيها دون غاية في أرجاء المقبرة بين المدافن أو في شوارع المدينة.

في الخامسة والأربعين من عمري أصبحت الرئيس المشرف على مطبعة أخرى تابعة لإحدى دور النشر. لم أَعُدْ أعمل ليلاً، بل من الثامنة صباحاً إلى السادسة مساءً ومن ضمنها ساعتا راحة وقت الغداء. في سنّي هذه أصبحتُ معتلَّ الجسم أعاني من الأمراض. أفْسَدَ هواء الرصاص رئتيَّ، وراح دمي الذي يفتقر إلى الأوكسيجين

يفسد هو أيضاً. هذا ما يطلق عليه اسم «التسمّم الرّصاصي»، مرض عمّال الطباعة والمطابع. غالباً ما أُصابُ بالغثيان والإسهال. ينصحني الطبيب بتناول كميّات كبيرة من الحليب وأن أنتهز الفرص لتنشّق الهواء الطلق ما استطعت. لا أحبّ الحليب. وأعاني أيضاً من الأرق، الأمر الذي يسبّب لي قدراً كبيراً من التّوتر العصبي والإنهاك الجسدي. فبعد ثلاثين عاماً من العمل اللّيلي، أصبح يستحيل عليَّ أن أنام أثناء اللّيل.

في المطبعة الجديدة نطبع كلَّ أنواع النصوص والقصائد والنثر والرّوايات. يأتي مدير دار النشر أحياناً للتحقُّق من حسن سير العمل. وذات يوم يضع أمام عينيّ بعض قصائدي المطبوعة التي عثر عليها فوق أحد الرّفوف:

ـ ما هذا؟ لمن هذه القصائد؟ من هو كلاوس لوكاس؟

أتلعثم، لأنّه حسب قوانين العمل، لا يحقّ لي أن أطبع نصوصاً لي:

ـ إنّها قصائدي. قصائدي أنا. أطبعها بعد انتهاء دوام العمل.

ـ أتقصد أنّك كلاوس لوكاس مؤلّف هذه القصائد؟

ـ أجل، أنا.

يسأل:

ـ متى كتبتها؟

أقول:

ـ خلال الأعوام المنصرمة. وقبل ذلك كتبت عدداً كبيراً من القصائد حين كنتُ لاأزال في مُقتبل العُمْر.

يقول:

ـ أحضر لي كلّ ما عندك. تعالَ إلى مكتبي غداً صباحاً واحضر لي

twitter @baghdad_library

كلَّ ما كتبته.

وصباح اليوم التالي أدخلُ مكتب المدير حاملاً قصائدي التي كتبت على بضع مئاتٍ من الصفحات، بل ربّما كانت ألف صفحة.

يروز المدير رزمة الورق:

ـ كلّ هذه الأوراق؟ ألم تحاول نشرها من قبل؟

أقول:

ـ لم تراودني الفكرة من قبل. كنت أكتب لنفسي، أتشاغل بالكتابة، طلباً للتسلية.

يضحك المدير:

ـ طلباً للتسلية؟ قد تكون قصائدك أيّ شيء، لكنَّها ليست للسلوى بالتأكيد. على الأقلّ تلك التي قرأتها. ولكن ربّما كنتَ أكثر ابتهاجاً في صباك؟

أقول:

ـ في صباي؛ لا، بالتأكيد.

يقول:

ـ هذا صحيح. لم يكن في تلك الحقبة ما يدعو إلى الابتهاج، ولكن منذ اندلاع الثّورة تبدَّلت أمور كثيرة.

أقول:

ـ ليس فيما خصّني. إذ لم يتبدَّل شيءٌ فيما خصّني.

يقول:

ـ على الأقلّ، بإمكاننا الآن أن ننشر قصائدك.

أقول:

ـ إذا كنت ترى ذلك، إذا كنت مقتنعاً بذلك، فانشرها. ولكن أرجو منك أن لا تعطي عنواني أو اسمي الحقيقي لأيٍّ كان.

عادَ لوكاس ورَحَلَ مُجدَّداً. لقد طردته. وترك لي مخطوطته غير الناجزة. وها أنا أعمل على إنجازها.

لم يُعلمني موظّف السّفارة بقدومه. بعد زيارة أخي بيومين، قُرِع بابي في التاسعة مساءً. ولحسن الحظّ كانت الوالدة قد أوت إلى فراشها. الرّجلُ نحيل وشاحب وشعره جَعْد. استقبلته في غرفة المكتب. يقول:

ـ إنّي لا أجيد الكلام بلغتكم فاعذرني إذا بدا كلامي فظّاً. شقيقك، أقصد شقيقك المزعوم، كلاوس ت(*). انتحر اليوم. لقد رمى بنفسه تحت عجلات قطار في الثانية والرّبع من بعد ظهر اليوم في محطّة الشرق أثناء عمليّة ترحيله إلى بلاده. وقد ترك في سفارة بلادي رسالةً موجّهة إليك.

يُسلِّمني الرّجل مغلَّفاً كُتب عليه: «لجانب السيِّد كلاوس ت(*)».

أفتح الرّسالة. وعلى مَقْلَب خارطة خطوط السكّة الحديد أقرأ ما يلي: «أودّ أن أُدفَنَ بجوار والديّ». التوقيع: لوكاس.

أعيد الرّسالة إلى موظّف السّفارة:

ـ يريد أن يُدفن هنا.

يقرأ الرّجل العبارة ويسألني:

(*) Claus.

Klaus.

twitter @baghdad_library

ـ لماذا يوقّع باسم لوكاس؟ هل كان حقّاً شقيقك؟

أقول:

ـ لا. ولكن لشدَّة ما كان يؤمن بما يدّعيه لا أستطيع أن أرفض له طلبه الأخير.

يقول الرّجل:

ـ أمرٌ غريب. منذ يومين، وإثر زيارته لك، سألناه، إذا عثر على أحد أفراد عائلته فأجابنا بالنفي.

أقول:

ـ إنّها الحقيقة. فما من صلة قرابة بيننا.

يسأل الرّجل:

ـ ومع ذلك سوف تسمح بدفنه بجوار والديك؟

أقول:

ـ أجل. بجوار أبي. لأنّه الميت الوحيد في عائلتي.

نسير وراء عربة الموتى، أنا وموظّف السّفارة. الثّلج ينهمر غزيراً. أحمل باقةً من القرنفل الأبيض وباقة أخرى من القرنفل الأحمر. لقد ابتعت القرنفل من حانوت الورود. ففي حديقتنا ما عاد القرنفل ينبت حتّى ولا في أيّام الصيف. الوالدة تزرع الحديقة بكافّة أنواع الأزهار إلاّ القرنفل.

بجوار قبر والدي، حُفِر قبر جديد. نواريهِ تابوت أخي، ونضع فوقه صليباً يحمل اسمي ولكنْ بكتابة مختلفة.

أعودُ إلى المقبرة كلَّ يوم. أنظر إلى الصليب الذي كتب عليه اسم كلاوس(*)، وأفكِّر أنَّه ينبغي أن أستبدله بصليب آخر يحمل اسم لوكاس.

وأفكّر أيضاً أنَّنا في القريب العاجل سوف نلتقي نحن الأربعة. فيوم تموت أمّي لا يبقى لديّ من سبب للاستمرار.

القطار، إنّها لفكرة حسنة.

. Claus

twitter @baghdad_library

نبذة عن الكاتبة

آغوتا كريستوف ، كاتبة مجريّة، تحيا في سويسرا منذ أواسط الخمسينات وتكتب بالفرنسيّة. «الكذبة الثالثة» (جائزة «ليڤر أنتر» الفرنسيّة للرّواية لعام ١٩٩٢) هي روايتها الثالثة بعد «الدفتر الكبير» (١٩٨٦) و«الدليل» (١٩٨٨). وقد ترجمت جميعها إلى أكثر من عشرين لغة في كافّة أنحاء العالم.

هذه هي الترجمة العربيّة الكاملة
لكتاب

Le Troisième Mensonge

(Roman)

de Agota Krustof

Éditions du Seuil 1991

نبذة عن الكاتبة

آغوتا كريستوف، كاتبة مجريّة، تحيا في سويسرا منذ أواسط الخمسينات وتكتب بالفرنسيّة. «الكذبة الثالثة» (جائزة «ليقر أنتر» الفرنسيّة للرّواية لعام ١٩٩٢) هي روايتها الثالثة بعد «الدفتر الكبير» (١٩٨٦) و«الدليل» (١٩٨٨). وقد ترجمت جميعها إلى أكثر من عشرين لغة في كافّة أنحاء العالم.

. . . وأقول لها إنّني أحاول أن أسردَ قصّتي، ولكنّني لا أستطيع، ولا أملك الجرأة، لأنّها تؤلمني. ولذلك أُجمِّلُ كلَّ شيء وأصف الأمور، لا كما جرَت بالفعل، بل كما كنتُ أودّ أن تجري.

تقول:

ـ بلى. قد تكون حياة الواحد منّا أشدّ كآبةً من أشدِّ الكتب كآبة. .

أقول:

ـ بالضبط. إنَّ الكتاب، مهما كان كئيباً، لا يمكن أن يكون بمثل كآبة حياة.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

twitter @baghdad_library